الفصل الرابع

اتساع الدلالة لأسباب بلاغية

من عوامل اتساع الدلالة في الخطاب القرآني اعتماده في نسج التركيب وإحكام النظم على التفنن البلاغي في أداء المعاني وفق أساليب العرب، بل فوقها في الفصاحة والبيان، نذكر من تلك الأساليب استخدام اللفظ في معنيين مجازيين، وتضمين الفعل معنى فعل آخر، وحذف جزء من التركيب، والاستخدام البديعي للفظ في معنيين، والتقديم والتأخير، والإخبار بالعام عن الخاص، وتردد الجملة بين أساليب الإنشاء والخبر.

أولاً - التضمين:

التضمين لغة: جعل الشيء في ضِمن الشيء مشتملاً عليه، جاء في لسان لعرب: "ضَمَّنَ الشيءَ الشيءَ أَوْدَعه إياه، كما تُودِعُ الوعاءَ المتاعَ والميتَ القبرَ"[1].

والتضمين في الاصطلاح يُراد به أشياء:

---

(١) لسان العرب: (ضمن).

أحدها: التضمين في الشعر، وهو على ضربين:

أولهما: تضمين الإسناد، وذلك يقع في بيتين من الشعر أو فصلين من الكلام المنثور على أن يكون الأول منهما مسنداً إلى الثاني فلا يقوم الأول بنفسه ولا يتمُّ معناه إلا بالثاني، كقول امرئ القيس:

فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا تَمَطَّى بِصُلْبِهِ وَأَرْدَفَ أَعْجَازاً وَنَاءَ بِكَلْكَلِ

أَلا أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّويلُ أَلا انْجَلي بِصُبْحٍ وَما الإِصْباحُ مِنْكَ بِأَمْثَلِ

والضرب الثاني: أن يضمن الشاعر شعره والناثر نثره كلاماً آخر لغيره قصد الاستعانة على تأكيد المعنى المقصود، ولو لم يذكر ذلك التضمين لكان المعنى تامّاً، وربما ضمن الشاعر البيت من شعره بنصف بيت أو أقل منه، كما قال جحظة:

قُمْ فَاسْقِنِيهَا يَا غُلامُ وَغَنِّني ذَهَبَ الَّذينَ يُعَاشُ في أَكْنَافِهِمْ

ألا ترى أنه لو لم يقل في هذا البيت "ذَهَبَ الَّذينَ يُعَاشُ في أَكْنَافِهِمْ" لكان المعنى تامّاً لا يحتاج إلى شيء آخر؛ فإن قوله "قُمْ فَاسْقِنِيهَا يَا غُلامُ وَغَنِّني" فيه كفاية إذ لا حاجة له إلى تعيين الغناء؛ لأن في ذلك زيادة على المعنى المفهوم لا على الغرض المقصود[1].

وقد ذكر السيوطي هذا الضرب من التضمين بقوله: "إدراج كلام الغير في أثناء الكلام؛ لقصد تأكيد المعنى، أو ترتيب النظم، وهذا هو النوع البديعي. قال ابن أبي الإصبع: ولم أظفر في القرآن بشيء منه إلَّا في موضعين تضمَّنا فصلين من التوراة والإنجيل، قوله: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ [المائدة: ٥/ ٤٥] الآية، وقوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩/ ٤٨] الآية. ومثله ابن النقيب وغيره بإيداع حكايات المخلوقين في

(١) المثل السائر: ٢/ ٣٢٤-٣٢٦.

القرآن، كقوله تعالى حكاية عن الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾، وعن المنافقين: ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾، ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ﴾، ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ﴾. قال: وكذلك ما أودع فيه من اللغات الأعجمية"[(١)].

والثاني: التضمين في القرآن: "أن يكون ما بعد الفاصلة متعلِّقاً بها، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ﴾ [الصافات: ٣٧/ ١٣٧-١٣٨][(٢)].

الثالث: التضمين المزدوج: أن يقع في أثناء قرائن النثر أو النّظم لفظان مُسَجَّعان بعد رعاية حُدود الأسجاع والقوافي الأصليّة، كقوله تعالى: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [النمل: ٢٧/ ٢٢]، وكحديث: "المؤمنون هينون لينون"[(٣)] ومن النظم:

تعوَّدَ رسْمَ الوَهْبِ والنَّهْبِ في العُلا وهذانِ وقت اللطفِ والعنفِ دَأْبُهُ[(٤)]

الرابع: ما ذكره القاضي أبو بكر في (إعجاز القرآن): "وأما التضمين: فهو حصول معنى فيه من غير ذكره له باسم أو صفة هي عبارة عنه. وذلك على وجهين: تضمينٌ توجبُه البِنْية، كقولنا: "معلوم"، يوجب أنه لا بدَّ من عالم. وتضمين يوجبه معنى العبارة من حيث لا يصحُّ إلَّا به، كالصفة بضارب على مضروب. والتضمين كله إيجاز.

وذكر: أن التضمين الذي تدل عليه دلالات القياس أيضاً إيجاز. وذكر: أن (بسم الله الرحمن الرحيم) من باب التضمين؛ لأنه تضمن تعليم

---

(١) الإتقان: ٢/ ٢٤٣-٢٤٤.

(٢) نفسه: ٢/ ٢٤٣.

(٣) الحديث في مسند الشهاب: برقم (١٣٩)، ١١/ ١١٤، القضاعي، أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر، تح: حمدي بن عبد المجيد السلفي. مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٨٦م.

(٤) التوقيف على مهمات التعاريف: ١٨١، وانظر: كتاب التعريفات: ٨٤.

الاستفتاح في الأمور باسمه على جهة التعظيم لله تبارك وتعالى، أو التبرك باسمه"[(١)].

الخامس: التضمين الذي نقصده في هذا البحث، هو ما جاء في حاشية السيد الجرجاني على الكشاف بقوله: "التضمين أن تقصد بلفظ معناه الحقيقي، ويلاحظ معه معنى فعل آخر يناسبه، ويدلُّ عليه بذكر شيء من متعلقاته، كقوله (أحمد إليك فلاناً) لاحظت فيه مع معنى الحمد معنى الإنهاء، ودللت عليه بذكر صلته، أعني (إلى) أي أنهي حمده إليك. وفائدة التضمين إعطاء مجموع المعنيين؛ فالفعلان مقصودان معاً وتبعاً"[(٢)].

ويقول ابن هشام: "قد يُشربون لفظاً معنى لفظ فيعطونه حكمه، ويسمى ذلك تضميناً، وفائدته أن تؤدي كلمة مؤدَّى كلمتين. قال الزمخشري: ألا ترى كيف رجع معنى ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ [الكهف: ٢٨/١٨] إلى قولك: ولا تقتحم عيناك مجاوزتين إلى غيرهم، ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْۚ﴾ [النساء: ٢/٤]، أي: ولا تضموها إليها آكلين"[(٣)].

فالتضمين على ما ذكر ابن هشام له غرض بلاغي لطيف، وهو الجمع بين معنيين بأخصر أسلوب، وذلك بذكر فعل وذكر حرف جر يستعمل مع فعل آخر، وهذه هي فائدة التضمين؛ ففيه كسب معنيين في تعبير واحد: معنى الفعل المذكور ومعنى المحذوف الذي ذُكر شيء من متعلقاته.

والتضمين نوع خاص من المجاز؛ لأنه يجمع في اللفظ بين الحقيقة

---

(١) إعجاز القرآن: ٢٧٢-٢٧٣، الباقلاني، أبو بكر محمد بن الطيب (٤٠٣هـ)، تح: السيد أحمد صقر. دار المعارف، القاهرة، ط٥، ١٩٩٧م.

(٢) حاشية الجرجاني على الكشاف: ١/ ٩٧.

(٣) مغني اللبيب: ٨٩٧-٨٩٩.

والمجاز معاً، يقول السيوطي: "وإنما كان التضمين مجازاً؛ لأن اللفظ لم يوضع للحقيقة والمجاز معاً، فالجمع بينهما مجاز"(١).

وحقيقة التضمين أن يتضمن فعل معنى فعل آخر، ويُعدَّى تعديته، وبذلك قد يصبح اللازم متعدياً، وإن كان متعدياً لمفعول به واحد فإنه يتعدَّى بالتضمين لاثنين.

غير أنَّ عماد التعدية في التضمين حروف الجر؛ إذ يُعدَّى الفعل المذكور بحرف الفعل المضمَّن، يقول ابن جني: "اعلم أن الفعل إذا كان بمعنى فعل آخر وكان أحدهما يتعدى بحرف والآخر بآخر فإن العرب قد تتسع فتوقع أحد الحرفين موقع صاحبه إيذاناً بأن هذا الفعل في معنى ذلك الآخر فلذلك جيء معه بالحرف المعتاد مع ما هو في معناه، وذلك كقول الله عزَّ اسمه: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ [البقرة: ٢/١٨٧]، وأنت لا تقول رفثت إلى المرأة وإنما تقول: رفثت بها أو معها، لكنه لما كان الرفث هنا في معنى الإفضاء وكنت تعدي أفضيت بـ (إلى) كقولك: أفضيت إلى المرأة جئت بـ (إلى) مع الرفث إيذاناً وإشعاراً أنه بمعناه(٢).

وههنا خلاف بين أهل البصرة وأهل الكوفة في المسألة؛ فالبصريون يحملون تعدية الفعل بغير حرفه على التضمين، والكوفيون يحملونه على جواز إنابة الحروف بعضها مكان بعض، يقول ابن هشام: "مذهب البصريين أن أحرُف الجر لا ينوب بعضُها عن بعض بقياس، كما أن أحرف الجزم وأحرف النصب كذلك، وما أوهم ذلك فهو عندهم إما مؤول تأويلاً يقبله اللفظ، كما قيل في ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: ٢٠/ ٧١]: إن (في) ليست بمعنى (على)، ولكن شبه المصلوب لتمكُّنه من

(١) الإتقان: ٢/ ١١٠.
(٢) الخصائص: ٢/ ٣٠٨.

الجذع بالحالِّ في الشيء، وإما على تضمين الفعل معنى فعل يتعدى بذلك الحرف، كما ضمن بعضهم شربن في قوله (شربن بماء البحر) معنى روينَ، و(أحسنَ) في ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ﴾ [يوسف: ١٢/ ١٠٠] معنى (لطفَ)، وإما على شذوذ إنابة كلمة عن أخرى، وهذا الأخير هو مجمل الباب كله عند أكثر الكوفيين وبعض المتأخرين، ولا يجعلون ذلك شاذاً، ومذهبهم أقلُّ تعسفاً"(١).

والذي نؤيده أن نيابة حروف الجر بعضها عن بعض خلاف الأصل، وأن إبقاءها على أصل معناها والقول بالتضمين أولى وأسلم من القول بترادف الحروف أو تناوبها، جاء في (شرح الرضي على الكافية): "واعلم أنه إذا أمكن في كل حرف يتوهم خروجه عن أصله، وكونه بمعنى كلمة أخرى أو زيادته أن يبقى على أصل معناه الموضوع هو له، ويضمن فعله المعدَّى به معنى من المعاني يستقيم به الكلام، فهو الأولى بل الواجب"(٢).

ولكن قد يقترب معنيان أو أكثر من معاني الحروف، فتتعاور الحروف على هذا المعنى لتقارب معانيها، يقول د. فاضل: " وقد تقترب المعاني من بعضها، أو يتوسع في استعمال المعنى، فيستعمل بعضها في معنى بعض، أو قريب منه، فمثلاً قد يتوسع في معنى الإلصاق بالباء، فيستعمل للظرفية، فتقول: أقمت بالبلد وفي البلد، ولكن يبقى لكل حرف معناه واستعماله المتفرد به، ولا يتماثلان تماماً"(٣).

ويقول ابن السراج: "واعلم أن العرب تتسع فيها فتقيم بعضها مقام بعض إذا تقاربت المعاني، فمن ذلك (الباء) تقول: فلان بمكة وفي مكة، وإنما جازا معاً لأنك إذا قلت: فلان بموضع كذا وكذا فقد خبرت عن

(١) مغني اللبيب: ١٥٠-١٥١.
(٢) شرح الشافية: ٢/ ٣٨٢.
(٣) معاني النحو: ٣/ ٧.

اتصاله والتصاقه بذلك الموضع، وإذا قلت: في موضع كذا فقد خبرت بـ (في) عن احتوائه إياه وإحاطته به. فإذا تقارب الحرفان فإن هذا التقارب يصلح للمعاقبة، وإذا تباين معناهما لم يجز، ألا ترى أن رجلاً لو قال: مررت في زيد، أو كتبت إلى القلم، لم يكن هذا يلتبس به، فهذا حقيقة تعاقب حروف الخفض، فمتى لم يتقارب المعنى لم يجز"[١].

والتضمين في كلام العرب كثير فاش، يتعب مستقصيه، يقول ابن جني: "ووجدت في اللغة من هذا الفن شيئاً كثيراً لا يكاد يُحاط به. ولعله لو جُمع أكثره (لا جميعه) لجاء كتاباً ضخماً"[٢]، وفيما يأتي نتلمس أمثلة له في كتاب الله وأثره في توسيع دلالات الخطاب القرآني:

قال تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ١/ ٧].

الإنعام إيصال الإحسان إلى الغير[٣]، والهمزة في قوله تعالى: ﴿أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ لجعل الرجل صاحب نعمة، والأصل في الإنعام أن يتعدى بنفسه، أما تعديته بـ (على) فلإفادة معنى التفضُّل تضميناً، فكأنه قال (أنعمت متفضلاً عليهم).

يقول أبو حيان: "(أَنعَمتَ)... نعم إذا كان في نعمة، وأنعمت عينه أي سررتها، وأنعم عليه أي بالغ في التفضيل عليه، والهمزة في أنعم تجعل الشيء صاحب ما صيغ منه، إلا أنه ضمَّن معنى التفضُّل، فعدى بـ (على)، وأصله التعدية بنفسه. أنعمته أي: جعلته صاحب نعمة"[٤].

---

(١) الأصول في النحو: ١/ ٤١٥.
(٢) الخصائص: ٢/ ٣١٠.
(٣) المفردات: (نعم).
(٤) البحر المحيط: ١/ ١٤٤.

فالتضمين أكسب الآية معنيي الإنعام والتفضُّل معاً بفعل الأول ومتعلق الثاني إيجازاً في اللفظ واتساعاً في المعنى.

قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ١٨٥].

التكبير يتعدَّى بنفسه كما في قوله تعالى: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾، أما تعديته بـ (عَلَى) فللدلالة على محذوف تقديره (حامدين).

جاء في الكشاف: "وإنما عدَّى فعل التكبير بحرف الاستعلاء لكونه مضمَّناً معنى الحمد، كأنه قيل: ولتكبروا الله حامدين على ما هداكم"[(١)].

فضمَّ فعل (التكبير) معنى (الحمد) إلى معناه بتعديته بما يتعدى به فعل الحمد، فاتسع وأوجز.

قال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: ٢/ ١٨٧].

ومن التضمين قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾؛ لأنه لا يقال رفثت إلى المرأة، لكن لما كان بمعنى الإفضاء ساغ ذلك، والتقدير: أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ مفضين إِلَى نِسَائِكُمْ.

يقول ابن هشام: "ومن مثل ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ ضُمن الرفث معنى الإفضاء، فعدي بـ (إلى) مثل ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ

(١) الكشاف: ١/ ٢٥٤.

بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ [النساء: ٤/ ٢١]، وإنما أصل الرفث أن يتعدى بالباء، يقال: أرفث فلان بامرأته"(١).

وجاء في لسان العرب: "الرَّفَثُ الجماعُ وغيره مما يكون بين الرجل وامرأته، يعني: التقبيل والمُغازلة ونحوهما مما يكون في حالة الجماع، وأَصله قول الفُحْش. والرَّفَثُ أَيضاً الفُحْشُ من القول وكلام النساءِ في الجماع، تقول منه رَفَثَ الرجل وأَرْفَثَ،... وقد رَفَثَ بها ومَعها... الرَّفَثُ كلمة جامعة لكل ما يريده الرجلُ من المرأَة"(٢).

ويقول ابن جني: "وأنت لا تقول: رفثت إلى المرأة، وإنما تقول: رفثت بها أو معها، لكنه لما كان الرفث هنا في معنى الإفضاء، وكنت تعدي أفضيت بـ (إلى) كقولك: أفضيت إلى المرأة، جئت بـ (إلى) مع الرفث إيذاناً وإشعاراً أنه بمعناه..."(٣).

فاتسعت الآية بالتضمين لمعنيي الرفث والإفضاء بكلمة وحرف ناب عن فعله حين سُبك مع كلمة أخرى، فجمع النظم الكريم بهذا التركيب المعنيين معاً بأوجز عبارة وأبلغ سبك.

قال تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ﴾ [البقرة: ٢/ ١٨٧].

في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾ معنيان:

أحدهما: أن يدلَّ (التبيُّن) بنفسه على معنى الوضوح، أي: حتى يتَّضح لكم الخيط البيض من الخيط السود.

(١) مغني اللبيب: ٨٩٧-٨٩٩.
(٢) لسان العرب: (رفث).
(٣) الخصائص: ٢/ ٣٠٨.

والآخر: أن يدلَّ (التبيُّن) على (التميُّز) ضمناً؛ لأنه تعدَّى بـ (من)، وهو ما يتعدَّى به فعل التميز، قال تعالى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [الأنفال: ٨/ ٣٧].

يقول الألوسي في (مِن) الأولى: "الظاهر أنها متعلقة بـ (يتبين) بتضمين معنى التميز، والمعنى حتى يتضح لكم الفجرُ متميزاً عن غبش الليل، فالغاية إباحة ما تقدَّم حتى يتبين أحدهما من الآخر، ويميز بينهما، ومن هذا وجه عدم الاكتفاء بـ (حتى يتبين لكم الفجر)، أو(يتبين لكم الخيط الأبيض من الفجر)؛ لأن تبين الفجر له مراتب كثيرة، فيصير الحكم مجملاً محتاجاً إلى البيان"[1].

فحصل بالتضمين معنيان: معنى التبيُّن ومعنى التميُّز في آن معاً بفعل وحرف.

قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٢٠].

والفعل في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ﴾ يشمل ثلاث دلالات مختلفة، ولكنها تؤدي في مجملها معنى دقيقاً بأبلغ بيان وأحكم نسج:

أولها: معنى العلم، وهو المصرح به في صيغة الفعل.

الثانية: معنى التمييز، وهو المضمَّن في الفعل المذكور، ويدلُّ عليه متعلِّقه، كما مرَّ، أي: وَاللهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مميزاً إياه مِنَ الْمُصْلِحِ، أو: يُميِّز بعلمه الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ.

---

(١) روح المعاني: ٢/ ٦٦.

جاء في البحر: "و﴿مِنَ﴾ متعلقة بـ ﴿يَعْلَمُ﴾ على تضمين ما يتعدّى بـ (مِنَ)، كأن المعنى: والله يميز بعلمه المفسد من المصلح"[(١)].

والثالثة: معنى الجزاء، وهو تعبير بالسبب عن المسبَّب مجازاً؛ إذ علم الله تعالى بالمفسد والمصلح يقتضي الثواب والعقاب، ويؤكد هذا المعنى مجيء الفعل بصيغة الفعل المضارع الدالة على التكرار وتجدُّد الجزاء بتجدُّد العمل.

يقول أبو حيان: "﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ﴾ جملة معناها التحذير، أخبر تعالى فيها أنه عالم بالذي يفسد من الذي يصلح، ومعنى ذلك: أنه يجازي كلاً منهما على الوصف الذي قام به، وكثيراً ما ينسب العلم إلى الله تعالى على سبيل التحذير؛ لأن من علم بالشيء جازى عليه، فهو تعبير بالسبب عن المسبَّب، و﴿يَعْلَمُ﴾ هنا متعدٍّ إلى واحد، وجاء الخبر هنا بالفعل المقتضي للتجدد، وإن كان علم الله لا يتجدد؛ لأنه قصد به العقاب والثواب للمفسد والمصلح، وهما وصفان يتجدّدان من الموصوف بهما، فتكرر ترتيب الجزاء عليهما لتكررهما"[(٢)].

وجاء في إرشاد العقل السليم: "﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ﴾ العلم بمعنى المعرفة المتعدية إلى واحد، و(مِنَ) لتضمينه معنى التمييز، أي: يعلم من يفسد في أمورهم عند المخالطة أو من يقصد بمخالطته الخيانة والإفساد مميزاً له ممن يصلح فيها أو يقصد الإصلاح فيجازي كلًّا منهما بعمله"[(٣)].

ففي نظم الآية الكريمة اتساع بدلالة الفعل على ثلاثة معان اجتمعت له؛ العلم حقيقة، والجزاء مجازاً، والتمييز تضميناً.

---

(١) البحر المحيط: ٢/ ١٧٢.
(٢) السابق نفسه.
(٣) إرشاد العقل السليم: ١/ ٢٢٠.

أضف إلى ما سبق التعميم في الحكم وذلك بحذف العائد؛ إذ الأصل: والله يعلم مفسدكم من مصلحكم، أو المفسد من المصلح منكم، فحذف العائد يوسع المعنى ليشمل المخاطبين وجميع المفسدين والمصلحين، وبهذا يكون الاتساع في الآية الكريمة من جهة اللفظ، حقيقة ومجازاً وتضميناً، ومن جهة الخطاب تعميماً.

قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٢٦].

الإيلاء: الحلف في قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ﴾. وحقه أن يستعمل بـ (على) وتعدِّيه بـ (من) لتضمينه معنى البعد، أي: للذين يحلفون متباعدين من نسائهم، فجمع معنى البعد بالتضمين إلى معنى الحلف باللفظ، فكسبهما معاً بلفظ واحد.

يقول الزمخشري: "فإن قلت: كيف عدي بـ (من) وهو معدَّى بـ (على)؟ قلت: قد ضمن في هذا القسَم المخصوص معنى البعد، فكأنه قيل: يبعدون من نسائهم مؤلين أو مقسمين"[(١)].

وأوَّل ابن هشام الفعل المضمَّن بالامتناع، قال: "وقوله تعالى ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ﴾ أي: يمتنعون من وطء نسائهم بالحلف؛ فلهذا عدي بـ (من)، ولما خفي التضمين على بعضهم في الآية، ورأى أنه لا يقال: حلف من كذا، بل حلف عليه، قال: من متعلقة بمعنى للذين، كما تقول لي منك مبرَّةٌ، قال: وأما قول الفقهاء: "آلى من امرأته" فغلط أوقعهم فيه عدم فهم المتعلق في الآية"[(٢)]، وكذلك الزركشي في البرهان يقول: "ضمّن (يُؤْلُونَ) معنى (يمتنعون) من وطئهن بالأَلِيَّة"[(٣)].

---

(١) الكشاف: ١/ ٢٩٦.

(٢) مغني اللبيب: ٨٩٧.

(٣) البرهان: ٣/ ٣٤١.

فالآية متسعة بهذا التضمين لمعنيي القسم والبعد أو الامتناع في وقت واحد، ومن أقرب طريق.

قال تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا �considered وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٣٥].

يشتمل فعل العزم في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ﴾ على معنيين:

أحدهما: الجدُّ في الأمر، وهو معنى العزم.

والآخر: النية، وهو المضمَّن في فعل العزم؛ ولذلك تعدَّى وهو في الأصل لازم، قال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٥٩]، وقال: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [محمد: ٤٧/ ٢١].

جاء في مغني اللبيب: "وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ﴾ أي: لا تنووا؛ ولهذا عدي بنفسه لا بـ (على)"(١).

ويقول د. فاضل: "وقد يضمن فعل لازم معنى فعل متعد، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٣٥]؛ لأن (عزم) فعل لازم، وقد ضُمّن معنى (ولا تنووا)"(٢). فاكتسب نظم الآية اتساعاً لمعنيي العزم والنية بفعل واحد.

قال تعالى: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٥٩].

في قوله تعالى: ﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ﴾ معنيان:

---

(١) مغني اللبيب: ٨٩٧-٨٩٩.

(٢) معاني النحو: ٣/ ١٢-١٣.

أحدهما: وقوع الموت في لحظة.

والآخر: اللبث على تلك الحالة مئة عام، ومعنى اللبث مضمَّن في الموت؛ لأنه لو حمل على ظاهر اللفظ لفسد المعنى.

يقول ابن هشام في الآية: "إن المتبادر انتصاب مئة بأماته، وذلك ممتنع مع بقائه على معناه الوضعي؛ لأن الإماتة سلب الحياة وهي لا تمتد، والصواب أن يضمَّن أماته ألبثه، فكأنه قيل: فألبثه الله بالموت مئة عام، وحينئذ يتعلق به الظرف بما فيه من المعنى العارض له بالتضمين"(١).

وجاء في روح المعاني: "﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ﴾ أي: فألبثه ميتاً مئة عام، ولا بد من اعتبار هذا التضمين؛ لأن الإماتة بمعنى إخراج الروح وسلب الحياة مما لا تمتد"(٢).

فاتسعت الآية بالتضمين لمعنيين في وقت واحد مع إيجاز اللفظ وإحكام السبك.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣/ ٣٣].

الأصل في الاصطفاء أن يتعدَّى بـ (من)، كما في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٢٢/ ٧٥]، والأصل في التفضيل أن يتعدى بـ (على)، كما في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٥٣]. وتعدية الاصطفاء بـ ﴿عَلَى﴾ في الآية الكريمة إشارة لتضمينه معنى التفضيل كما يوحي السياق.

---

(١) مغني اللبيب: ٦٨٧.

(٢) روح المعاني: ٣/ ٢١.

يقول الألوسي في تفسير الآية: "الاصطفاء: الاختيار، وأصله أخذ صفوة الشيء كالاستصفاء، ولتضمينه معنى التفضيل عدِّي بـ (على)"[(١)].

وجاء في البحر: "﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ متعلق بـ ﴿ٱصْطَفَىٰ﴾، ضمَّنه معنى (فضَّل)، فعدَّاه بـ (على). ولو لم يضمنه معنى (فضَّل) لعدِّي بـ (من)"[(٢)].

فالفعل جمع معنى الاصطفاء بلفظه ومعنى التفضيل بمتعلقه، فأفاد اتساعاً في الدلالة مع الإيجاز في اللفظ.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٣/ ٥٢].

ثمة خلاف بين الكوفيين والبصريين في تعليل استخدام (إلى) في قوله ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ إذ يرى أهل الكوفة ترادفاً بين (إلى) و(مع)، أما أهل البصرة فيؤوِّلونها بتضمين معنى الإضافة، أي: من يضيف نصرته إلى نصرة الله.

يقول المرادي: "إنما تجعل (إلى) كـ (مع)، إذا ضممت شيئاً إلى شيء، كقول العرب: الذود إلى الذود إبل. قال -أي الفراء- فإن لم يكن ضم لم تكن (إلى) كـ (مع)، فلا يقال في (مع فلان مال كثير): إلى فلان مال كثير. انتهى. وكون (إلى) بمعنى (مع) حكاه ابن عصفور، عن الكوفيين. وحكاه ابن هشام عنهم، وعن كثير من البصريين.

وتأوَّل بعضهم ما ورد من ذلك على تضمين العامل، وإبقاء (إلى) على أصلها. والمعنى في قوله تعالى ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾: من يضيف نصرته إلى نصرة الله، و(إلى) في هذا أبلغ من (مع)؛ لأنك لو قلت: من

(١) نفسه: ٣/ ١٣١.

(٢) البحر المحيط: ٢/ ٤٥٣.

ينصرني مع فلان، لم يدلَّ على أن فلاناً وحده ينصرك ولا بدَّ، بخلاف إلى؛ فإن نصرة ما دخلت عليه محققة واقعة مجزوم بها؛ إذ المعنى على التضمين: من يضيف نصرته إلى نصرة فلان"[(١)].

وجاء في الكشاف: "﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ من صلة أنصاري مضمناً معنى الإضافة، كأنه قيل: من الذين يضيفون أنفسهم إلى الله ينصرونني كما ينصرني، أو يتعلق بمحذوف حالاً من الياء، أي: من أنصاري ذاهباً إلى الله ملتجئاً إليه"[(٢)].

فاكتسبت الآية اتساعاً بتضمين النصرة معنى الإضافة في لفظ واحد عبَّر عن المعنى الأول بلفظه وعن الثاني بذكر متعلقه المناسب للسياق.

قال تعالى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٤/ ٢].

فعل الأكل في قوله تعالى ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْۚ﴾ يدلّ على معنيين في وقت واحد، هما:

الأول: يدلّ على التصرُّف مجازاً؛ لأنَّ المال لا يؤكل حقيقة، ولأن الأكل أهم مجالات الإنفاق والتصرُّف بالمال، أي: لا تتصرفوا بأموالهم ولا تنتفعوا بها.

والثاني: يدلّ على الإضافة أو الضم بتعدي الفعل بـ (إلى)؛ إذ ضمَّن الفعل وأبقى حرف الجر الدالّ عليه بما يناسب السياق، والتقدير: لا تُضِيفُوا أموالهم إلى أموالكم في الأكْل، أو لا تضموها إليها آكلين.

---

(١) الجنى الداني في حروف المعاني: ١٣٩، المرادي، بدر الدين الحسن بن قاسم(٧٩٤هـ)، تح: د. فخر الدين قباوة ومحمد نديم فاضل. دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط٢، ١٤٠٣هـ. وانظر: الخصائص: ٢/ ٣٠٩.

(٢) الكشاف: ١/ ٣٩٣.

جاء في روح المعاني: "والمراد من الأكل في النهي الأخير مطلق الانتفاع والتصرف، وعبَّر بذلك عنه لأنه أغلب أحواله، والمعنى لا تأكلوا أموالهم مضمومة إلى أموالكم، أي: تنفقوهما معاً ولا تسووا بينهما، وهذا حلال وذاك حرام، فـ (إلى) متعلقة بمقدر يتعدَّى بها، وقد وقع حالاً، وقدره أبو البقاء (مضافة)، ويجوز تعلُّقها بالأكل على تضمينه معنى الضم"(١).

ويقول الرازي: "معناه ولا تضموا أموالهم إلى أموالكم في الإنفاق حتى تفرقوا بين أموالكم وأموالهم في حل الانتفاع بها... واعلم أنه تعالى وإن ذكر الأكل، فالمراد به التصرُّف؛ لأن أكل مال اليتيم كما يحرم فكذا سائر التصرفات المهلكة لتلك الأموال محرمة، والدليل عليه أن في المال ما لا يصح أن يؤكل، فثبت أن المراد منه التصرف، وإنما ذكر الأكل لأنه معظم ما يقع لأجله التصرُّف"(٢).

ففي نظم الآية الكريمة اتساع جمع معنيين في لفظ واحد، معنى التصرُّف مجازاً ومعنى الضمِّ تضميناً، فأوجز في العبارة وبلَّغ المراد بأبلغ بيان.

قال تعالى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ [النساء: ٤/ ٤].

الفعل ﴿طِبْنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ﴾ اجتمع فيه دلالتان:

الأولى: ما يدلّ عليه اللفظ من معنى اللذة، يقول الأصفهاني:

(١) روح المعاني: ٤/ ١٨٨، وفتح القدير: ١/ ٤١٩.
(٢) التفسير الكبير: ٩/ ١٣٨.

"أصل الطيب ما تستلذه الحواس وما تستلذه النفس"[١].

الثانية: التجافي، وهو المعنى المتحصّل من تعليق ﴿عَن شَىْءٍ﴾ بالفعل، وحق الفعل أن يتعدّى بالباء لا بـ (عن)، مع مراعاة توافق المعنيين في السياق.

وباجتماع الدلالتين المذكورة والمضمَّنة في اللفظ يصبح معنى الآية: فإن وهبن لكم شيئاً من الصداق طيبة به النفس متجافية عنه من غير إكراه فكلوه، وفي الآية دليل على تضييق هذا الباب من وجهين: أحدهما أنه بنى الشرط على طيب النفس فقال ﴿فَإِن طِبْنَ﴾، ولم يقل: فإن وهبن أو سمحن لكم؛ إعلاماً بأن المراعى هو تجافي نفسها عن الموهوب طيبة به. والآخر: حثُّهن على تقليل الموهوب بقوله: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ﴾، ولم يقل: فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عنه.

جاء في روح المعاني: "واللام متعلقة بالفعل، وكذا (عن) بتضمينه معنى التجافي والتباعد، وإلا فأصله أن يتعدَّى لمثل ذلك بالباء...، والمعنى فإن وهبن لكم شيئاً من الصداق متجافياً عنه نفوسهن طيبات غير مخبثات بما يضطرهن إلى البذل من شكاسة أخلاقكم وسوء معاملتكم، وإنما أوثر ما في النظم الكريم دون (فإن وهبن لكم شيئاً منه عن طيب نفس)؛ إيذاناً بأن العمدة في الأمر طيب النفس وتجافيها عن الموهوب بالمرة حيث جعل ذلك مبتدأً وركناً من الكلام لا فضلة كما في التركيب المفروض"[٢].

ففي دلالة ﴿طِبْنَ﴾ على اللذة والتجافي معاً تصريحاً وتضميناً إيجاز في اللفظ واتساع في المعنى بأبلغ أسلوب وأقصره.

---

(١) المفردات: (طاب).

(٢) روح المعاني: ٤/ ١٩٩.

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ﴾ [المائدة: ٥/ ٤٨].

(الاتباع) في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ﴾ اجتمع فيه معنيان:

أولهما: بدلالة اللفظ على القفو معجمياً، يقول الراغب: "يقال تبعه واتبعه قفا أثره، وذلك تارة بالارتسام والائتمار"(١).

والثاني: بتضمين الاتباع معنى فعل يتعدَّى بـ (عن) ويناسب السياق، كالعدول والانحراف والانصراف.

ومعنى الآية بالجمع بين دلالتي اللفظ: لا تتبع أهواءهم عادلاً عما جاءك، أو لا تنحرف عما جاءك من الحق متبعاً أهواءهم.

جاء في روح المعاني: "(عن) متعلقة بـ (لَا تَتَّبِعْ) على تضمين معنى (العدول) ونحوه، كأنه قيل: لا تعدل عما جاءك من الحق متبعاً لأهوائهم. وقيل: بمحذوف وقع حالاً من فاعله، أي: لا تتبع أهواءهم عادلاً عما جاءك. أو من مفعوله، أي: لا تتبع أهواءهم عادلة عما جاءك"(٢).

ويقول الشوكاني: "﴿عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ﴾ متعلق بـ (لَا تَتَّبِعْ) على تضمينه معنى لا تعدل أو لا تنحرف عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ متبعاً لأهوائهم، وقيل: متعلق بمحذوف، أي: لا تتبع أهواءهم عادلاً أو منحرفاً عن الحق"(٣).

---

(١) المفردات: (تبع).
(٢) روح المعاني: ٦/ ١٥٢.
(٣) فتح القدير: ٢/ ٤٨، وانظر: إرشاد العقل السليم: ٣/ ٤٥.

فبتضمين الاتباع معنى العدول إيجاز للفظ واتساع في دلالة النظم الكريم بأحكم بيان وأبلغ تعبير.

قال تعالى: ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧/ ٧٧].

في قوله تعالى: ﴿وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ معنيان؛ أحدهما: المعنى المعجمي، وهو النبوُّ عن الطاعة[(١)]. والآخر: المعنى المضمّن، وهو التولِّي والإعراض أو الصدور، ويدلُّ عليه متعلِّقه المذكور؛ إذ إن (عتا) لا يتعدّى. وحاصل المعنى في الآية: عصوا معرضين عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ، أو تولَّوا عن أمر ربهم عاتين، أو عتوا صادرين عن أمر ربهم.

يقول الزمخشري: "﴿وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ وتولَّوا عنه واستكبروا عن امتثاله عاتين، و﴿أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ ما أمر به على لسان صالح عليه السلام من قوله: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٧/ ٧٣]، أو شأن ربهم وهو دينه. ويجوز أن يكون المعنى: وصدر عتوّهم عن أمر ربهم، كأن أمر ربهم بتركها كان هو السبب في عتوّهم"[(٢)].

وجاء في روح المعاني: "يضمّن (عَتَوْاْ) معنى التولي، أي: تولوا عن امتثال أمره عاتين، أو معنى الإصدار، أي: صدر عتوهم عن أمر ربهم وبسببه؛ لأنه تعالى لما أمرهم بقوله: ﴿فَذَرُوهَا﴾ إلخ ابتلاهم فما امتثلوا فصاروا عاتين بسببه، ولولا الأمر ما ترتب العقر. والداعي للتأويل بـ (تولَّوا) أو (صدر) أن (عتا) لا يتعدّى بـ (عن) فتعديته به لذلك"[(٣)].

---

(١) المفردات: (عتا).

(٢) الكشاف: ٢/ ١١٦، وانظر: البحر المحيط: ٤/ ٣٣٣-٣٣٤.

(٣) روح المعاني: ٨/ ١٦٥.

وما قيل في الآية من معنى الصدور المضمَّن يُذكر أيضاً في قوله تعالى: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِيۚ﴾ [الكهف: ١٨/ ٨٢]، أي: وما فعلته صادراً عن أمري.

وكذلك تضمين العصيان والإعراض[١] في قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الطلاق: ٦٥/ ٨]، والتقدير: وكم من أهل قرية عصوا معرضين عن أمر ربهم.

فقد اتسع النظم في هذه الآيات الكريمة لمعنيين اجتمعا في كلمة واحدة أحدهما ملفوظ والآخر ملحوظ بعبارة وجيزة، وسبك محكَم بديع.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٩/ ٣٨].

وفي قوله تعالى: ﴿ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ تضمين كذلك؛ حيث يشمل اللفظ معنى التثاقل بلفظه ومعنى الميل والإخلاد بمتعلِّقه المناسب للسياق، والمعنى: اثَّاقَلْتُمْ مائلين إِلَى الأَرْضِ.

يقول الألوسي: "﴿إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ متعلق بـ ﴿ٱثَّاقَلۡتُمۡ﴾ على تضمينه معنى الميل والإخلاد، ولولاه لم يعدَّ بـ (إلى)، أي: اثاقلتم مائلين إلى الدنيا وشهواتها الفانية عما قليل، وكرهتم مشاق الجهاد ومتاعبه المستتبعة للراحة الخالدة والحياة الباقية، أو إلى الإقامة بأرضكم وديياركم. والأول أبلغ في الإنكار والتوبيخ. ورجح الثاني بأنه أبعد عن توهم شائبة التكرار في الآية"[٢]. فاحتمل اللفظ المعنيين معاً إيجازاً واتساعاً.

---

(١) فتح القدير: ٥/ ٢٤٦.

(٢) روح المعاني: ١٠/ ٩٥، وانظر: إرشاد العقل السليم: ٤/ ٦٥.

قال تعالى: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يوسف: ١٢/ ٥].

الأصل في فعل الكيد أن يتعدَّى بنفسه كما في قوله تعالى: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ [هود: ١١/ ٥٥]، ولكنَّه تعدَّى باللام لتضمينه معنى الاحتيال لتأكيد المعنى بإفادة معنى الفعلين المذكور والمضمَّن جميعاً.

يقول الزمخشري: "﴿فَيَكِيدُواْ﴾ منصوب بإضمار أن، والمعنى: إن قصصتها عليهم كادوك. فإن قلت: هلا قيل (فيكيدوك) كما قيل ﴿فَكِيدُونِ﴾؟ قلت: ضمن معنى فعل يتعدى باللام؛ ليفيد معنى فعل الكيد مع إفادة معنى الفعل المضمَّن، فيكون آكد وأبلغ في التخويف وذلك نحو: فيحتالوا لك. ألا ترى إلى تأكيده بالمصدر"[(١)].

وجاء في فتح القدير في قوله: ﴿فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًاۖ﴾: "أي فيفعلوا لك، أي: لأجلك كيداً مثبتاً راسخاً لا تقدر على الخلوص منه، أو كيداً خفيّاً عن فهمك، وهذا المعنى الحاصل بزيادة اللام آكد من أن يقال (فيكيدوا كيداً). وقيل: إنما جيء باللام لتضمينه معنى الاحتيال المتعدي باللام فيفيد هذا التضمين معنى الفعلين جميعاً الكيد والاحتيال، كما هو القاعدة في التضمين أن يقدر أحدهما أصلاً والآخر حال"[(٢)].

وما ذُكر من تضمين الفعل يؤكد اتساع الدلالة في نظم الخطاب وإيجازه.

قال تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّاۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ

(١) الكشاف: ٢/ ٤١٩.
(٢) فتح القدير: ٣/ ٥.

بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٢/ ١٠٠].

في قوله: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ﴾ معنيان ظاهر ومضمَّن؛ أما الظاهر فدلالة اللفظ على الإحسان، وأما المضمَّن فدلالته على اللطف بتعدِّيه بما يتعدَّى به اللطف، ويؤيده السياق أولاً، وختام الآية ﴿إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾ ثانياً.

يقول أبو السعود: "﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ﴾ المشهور استعمال الإحسان بـ (إلى)، وقد يستعمل بالباء أيضاً، كما في قوله عز اسمه: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة: ٢/ ٨٣]. وقيل: هذا بتضمين (لطف)، وهو الإحسان الخفي كما يؤذن به قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾، وفيه فائدة لا تخفى، أي: لطف بي محسناً إلي غير هذا الإحسان"[(١)].

وجاء في التحرير والتنوير: "قيل: هو بتضمين (أحسن) معنى (لطف). وباء (بي) للملابسة، أي: جعل إحسانه ملابساً لي، وخصّ من إحسان الله إليه دون مطلق الحضور للامتيار أو الزيادة إحسانين هما يوم أخرجه من السجن ومجيء عشيرته من البادية"[(٢)].

ويستشف من كلام ابن عاشور أن ثمة إحسانين، إحسان عام وإحسان خاص، يُفرَّق بينهما بالتعدية؛ فإن معنى (أحسن إليه) قدم إليه إحساناً، أو صنع له إحساناً، أما (أحسن به) فمعناه وضع إحسانه به[(٣)].

وقد قال تعالى: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٢٨/ ٧٧]، وإحسان الله إلى الخلق إحسان عام يشترك فيه سيدنا يوسف عليه

(١) إرشاد العقل السليم: ٤/ ٣٠٧، وانظر: فتح القدير: ٣/ ٥٦.
(٢) التحرير والتنوير: ١٢/ ١١٩.
(٣) معاني النحو: ٣/ ٢٣.

السلام وبقية الخلق، أما قوله: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ﴾ [يوسف: ١٢/ ١٠٠] فإن فيه إحساناً خاصاً ألصق من الأول إذ أخرجه من السجن، وبوّأه مكانة عالية، وجاء إليه بأهله أجمعين، وغير ذلك من الرعاية واللطف الرباني.

وخلاصة الأمر أن تعدية الإحسان بالباء، إما أن يُحمل على تضمين معنى اللطف، وإما أن يدلَّ على إحسان خاص فيه مزيد عناية، والإحسان في كلتا الحالتين يحمل دلالة (أحسن إلى) وزيادة، مما يفيد توسيع الدلالة وإيجاز العبارة.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٣].

تعدَّى الاستحباب في القرآن الكريم بـ (على) في هذه الآية وفي ثلاثة مواضع أخر، وهي قوله تعالى: ﴿إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ﴾ [التوبة: ٩/ ٢٣]، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [النحل: ١٦/ ١٠٧]، ﴿فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ٤١/ ١٧].

والاستحباب في هذه الآيات يجمع بين معنيين ظاهرين، أحدهما بلفظه، والآخر بحرفه؛ ذلك لأن الاستحباب يتعدَّى بنفسه إلى مفعول واحد، وههنا يتعدَّى إلى ثانٍ بـ (على)، وهو ما يشير إلى ما في متعلِّقه من معنى التفضيل والإيثار تضميناً، فكأنه قال: يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا مؤثريها عَلَى الآخِرَةِ.

يقول أبو حيان: "والاستحباب الإيثار والاختيار، وهو استفعال من المحبة؛ لأنّ المؤثر للشيء على غيره كأنه يطلب من نفسه أن يكون أحب إليها وأفضل عندها من الآخر. ويجوز أن يكون استفعل بمعنى أفعل كاستجاب وأجاب، ولما ضمن معنى الإيثار عدِّي بـ (على)"[(١)].

(١) البحر المحيط: ٥/ ٣٩٣.

وفي تضمين الاستحباب معنى الإيثار تنبيه على أنَّ حبَّ الدنيا لا يكون مذموماً إلا إذا اقترن بإيثارها على الآخرة، يقول الرازي: "جمع تعالى بين هذين الوصفين ليتبين بذلك أن الاستحباب للدنيا وحده لا يكون مذموماً إلا بعد أن يضاف إليه إيثارها على الآخرة، فأما من أحبها ليصل بها إلى منافع النفس وإلى خيرات الآخرة فإن ذلك لا يكون مذموماً حتى إذا آثرها على آخرته بأن اختار منها ما يضره في آخرته فهذه المحبة هي المحبة المذمومة"(١).

فاكتست الآية معنى جديداً لا يكون بغير التضمين، وهو الجمع بين الحب والإيثار بفعل واحد تعدَّى بحرف غير حرفه، فقلَّ اللفظ وكثر المعنى.

قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ١٨/٢٨].

الفعل في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ يجمع معنيين معاً، معنى التجاوز، دلّ عليه بـ ﴿تَعْدُ﴾، ومعنى النبو ضمَّنه في الفعل المذكور ودلّ عليه بـ ﴿عَنْهُمْ﴾، فكأنه قال: ولا تتجاوز عيناك نابيتين عنهم، أو لا تنبُ عيناك عنهم متجاوزتين.

جاء في الكشاف: "يقال: عداه إذا جاوزه، ومنه قولهم: عدا طوره. وجاءني القوم عدا زيداً. وإنما عدي بـ (عن) لتضمين عدا معنى نبا وعلا في قولك (نبت عنه عينه وعلت عنه عينه) إذا اقتحمته ولم تعلق به.

فإن قلت: أي غرض في هذا التضمين؟ وهلا قيل: ولا تعدهم عيناك أو لا تعلُ عيناك عنهم؟

(١) التفسير الكبير: ١٩/٦٢.

قلت: الغرض فيه إعطاء مجموع معنيين، وذلك أقوى من إعطاء معنى فذّ، ألا ترى كيف رجع المعنى إلى قولك: ولا تقتحمهم عيناك مجاوزتين إلى غيرهم؟ "(١).

وقد وردت الآية عند ابن هشام في أمور لا يكون الفعل معها إلا قاصراً، فذكر منها: "أن يُضمَّن معنى فعل قاصر، نحو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ [الكهف: ١٨/ ٢٨]، ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ [النور: ٢٤/ ٦٣]، ﴿أَذَاعُواْ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤/ ٨٣]، ﴿وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ﴾ [الأحقاف: ٤٦/ ١٥]، ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [الصافات: ٣٧/ ٨]،... فإنها ضُمنَّت معنى ولا تنبُ، ويخرجون، وتحدثوا، وبارك، ولا يصغون "(٢).

ففي التضمين اتساع باللفظ على نحو ما ذكر الزمخشري؛ ليدل على معنيين معاً بأقصر عبارة وأحكم بيان.

قال تعالى: ﴿وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٧٧].

الفعل نصر في الآية الكريمة يدل على معنيين مجتمعين في اللفظ، أولهما: النصر المعهود في اللفظ، والثاني: الإنجاء والتخليص أو الانتقام المضمَّن في النصر، ويدل عليه تعدِّي الفعل بـ (من)، فيكون معنى الآية: نَصَرْنَاهُ مُنجين إياه مِنَ الْقَوْمِ، أو نَصَرْنَاهُ منتقمين له مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَغْرَقْنَاهُمْ.

جاء في روح المعاني: "منعناه وحميناه منهم بإهلاكهم وتخليصه، وقيل: أي نصرناه عليهم فـ (من) بمعنى (على)، وقال بعضهم: إن النصر

(١) الكشاف: ٢/ ٦٧١.
(٢) مغني اللبيب: ٦٧٦.

يتعدَّى بـ (على) و(من)، ففي الأساس نصره الله تعالى على عدوه ونصره من عدوه، وفرق بينهما بأن المتعدي بـ (على) يدل على مجرد الإعانة، والمتعدي بـ (من) يدل على استتباع ذلك للانتقام من العدو والانتصار"[(١)].

ويقول أبو حيان: "﴿وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ﴾ عداه بـ (من) لتضمنه معنى نجيناه بنصرنا من القوم، أو عصمناه ومنعناه، أي: من مكروه القوم"[(٢)].

وللدكتور فاضل تفريق لطيف بين (من وعلى) في تعدية الفعل، يبيِّن فيه أثر التضمين، يقول: "إن هناك فرقاً في المعنى بين قولك (نصره منه) و(نصره عليه) فالنصر عليه يعني التمكن منه والاستعلاء عليه والغلبة، قال تعالى: ﴿وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٩/ ١٤]، وقال: ﴿فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٨٦]، أي مكّنا منهم، وليس هذا معنى نصره منه.

أما (نصرناه منهم) فإنه بمعنى نجّيناه منهم، أو منعناه منهم، قال تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ﴾ [هود: ١١/ ٣٠]، فليس المعنى من ينصرني على الله، بل من ينجيني ويمنعني منه؟

وقد تقول: ما الفرق بين قولنا (نجيناه من القوم) وقولنا (نصرناه من القوم)؟

والجواب أن التنجية تتعلق بالناجي فقط، فعندما تقول (نجيته منهم) كان المعنى أنك خلّصته منهم، ولم تذكر أنك تعرضت للآخرين بشيء، كما تقول (أنجيته من الغرق) ولا تقول (نصرته من الغرق)؛ لأن الغرق ليس شيئاً ينتصف منه.

---

(١) روح المعاني: ١٧/ ٧٣.
(٢) البحر المحيط: ٦/ ٣٠٦.

أما النصر منه ففيه جانبان في الغالب: جانب الناجي، وجانب الذين نُجِّي منهم، فعندما تقول (نصرته منهم) كان المعنى أنك أنجيته وعاقبت أولئك، أو أخذت له حقه منهم.

وهذه فائدة التضمين ففيه كسب معنيين في تعبير واحد، معنى الفعل المذكور والفعل المحذوف الذي ذكر شيء من متعلقاته"[١].

قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٣/٨٨].

قوله تعالى: ﴿وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ يشتمل معنيين مجتمعين، أحدهما المنعة المفهومة من الفعل، والآخر النصرة المدلول عليه بحرف الجر تضميناً، ومجمل المعنى: ولا يمنع أحد أحداً من الله منتصراً عليه، أو لا يستعلي أحد على الله مجيراً أحداً، ولكن أين ركاكة هذا التعبير وطوله من علو ذاك البيان وإيجازه؟

يقول الألوسي: "﴿وَهُوَ يُجِيرُ﴾ أي: يمنع من يشاء ممن يشاء، ﴿وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ ولا يمنع أحد منه جل وعلا أحداً، وتعدية الفعل بـ (على)؛ لتضمينه معنى النصرة أو الاستعلاء"[٢].

ويقول أبو السعود: "﴿وَهُوَ يُجِيرُ﴾ أي يُغيث غيرَه إذا شاء ﴿وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ أي ولا يُغيث أحدٌ عليه، أي لا يُمنع أحدٌ منه بالنَّصر عليه"[٣]

وفوق المعنيين في التضمين معنى ثالث مفاد من صيغة البناء للمجهول الذي يُطلق المعنى ليشمل النفي كل فاعل، يقول ابن عاشور: "وبني فعل

(١) معاني النحو: ٣/ ١٢-١٣.
(٢) روح المعاني: ١٨/ ٥٨.
(٣) إرشاد العقل السليم: ٦/ ١٤٨.

﴿يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ للمجهول لقصد انتفاء الفعل عن كل فاعل، فيفيد العموم مع الاختصار"[١].

فإحكام النظم في هذه العبارة أكسبها توسعاً في الدلالة فجمعت بالصيغة نفي الفعل عن كل أحد، وبالفعل معنيي الجوار والنصرة، كل ذلك بفعل وحرف؛ اتساعاً في المعنى، وإيجازاً في اللفظ، وإعجازاً في النظم.

قال تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٢٤/ ٦٣].

الأصل في المخالفة أن تتعدَّى بنفسها إلى مفعول واحد، فإذا تعدَّت بحرف كما في قوله تعالى: ﴿يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ دلَّت على تضمين فعل يتعدَّى بذاك الحرف، فيكون المعنى: يُخَالِفُونَ معرضين عَنْ أَمْرِهِ، أو صادين، أو منحرفين، أو مبتعدين، أو غير ذلك مما يتعدَّى بـ (عن) ويناسب السياق.

يقول الشوكاني في الآية: "عدّى فعل المخالفة بـ (عن) مع كونه متعدياً بنفسه؛ لتضمينه معنى الإعراض أو الصدّ"[٢].

وجاء في البحر: "وخالف يتعدَّى بنفسه، تقول: خالفت أمر زيد، وبـ (إلى)، تقول: خالفت إلى كذا؛ فقوله: ﴿عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ ضمن خالف معنى صدّ وأعرض فعداه بـ (عن)"[٣].

فقد تضمَّن الفعل المتعدي بنفسه معنى فعل قاصر فصار متعدياً بالحرف، وأفاد المعنيين جميعاً بلفظ واحد.

---

(١) التحرير والتنوير: ١٨/ ٩١.
(٢) فتح القدير: ٤/ ٥٨.
(٣) البحر المحيط: ٦/ ٤٣٧.

قال تعالى: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص: ٢٨/ ١٥].

الاستغاثة في قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ تجمع بالتضمين طلب النجدة والنصرة معاً، الأول بالفعل، والثاني بالحرف، فكأنه قال: فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ مستنصراً عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ.

يقول الألوسي: "﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ﴾ أي فطلب غوثه ونصره إياه ﴿عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾؛ ولتضمين الفعل معنى النصر عدّي بـ (على)، ويؤيده قوله تعالى بعد: ﴿ٱسْتَنصَرَهُ بِٱلْأَمْسِ﴾ [القصص: ٢٨/ ١٨].

ويجوز أن يكون تعديته بـ (على) لتضمينه معنى الإعانة، ويؤيده أنه قرئ (فاستعانه) بالعين المهملة والنون بدل الثاء"[(١)].

فاتسع اللفظ بالتضمين لمعنيين مختلفين في وقت واحد جامعاً الدقة والإيجاز معاً.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٥٣].

والإذن في قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ﴾ يجمع بالتضمين معنيين مرادين معاً، المعنى المفهوم من الفعل، والمعنى الملحوظ من الحرف، وهو الدعوة إلى الطعام، ويؤيده قوله بعد ذلك:

(١) روح المعاني: ٢٠/ ٥٣.

﴿وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟﴾، فكأنه قال في المجموع: إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ مدعوين إِلَى طَعَامٍ.

يقول الشوكاني: "﴿إِلَىٰ طَعَامٍ﴾ متعلق بـ ﴿يُؤْذَنَ﴾ على تضمينه معنى الدعاء، أي: إلا أن يؤذن لكم مدعوين إلى طعام"(١).

ويقول أبو السعود: "﴿إِلَىٰ طَعَامٍ﴾ متعلق بـ ﴿يُؤْذَنَ﴾ بتضمين معنى الدعاء للإشعار بأنه لا ينبغي أن يدخلوا على الطعام بغير دعوة وإن تحقق الإذن"(٢).

فاتسعت الآية الكريمة لمعنيي الإذن والدعوة بعبارة وجيزة ونظم بليغ.

قال تعالى: ﴿فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ [ص: ٣٨/ ٣٢].

وكذلك الفعل في قوله تعالى: ﴿أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى﴾ يتضمَّن معنيي الحب باللفظ، والإيثار أو الانصراف بالتعدية، فكأنه قال: أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ منصرفاً عَن ذِكْرِ رَبِّي، أو مؤثراً له عَن ذِكْرِ رَبِّي.

جاء في فتح القدير: "انتصاب ﴿حُبَّ ٱلْخَيْرِ﴾ على أنه مفعول ﴿أَحْبَبْتُ﴾ بعد تضمينه معنى (آثرت). قال الفراء: يقول آثرت حب الخير، وكل من أحب شيئاً فقد آثره"(٣).

وقال الزمخشري: "فإن قلت: ما معنى: ﴿أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى﴾؟ قلت: أحببت مضمن معنى فعل يتعدى بـ (عن)، كأنه قيل: أنبت

(١) فتح القدير: ٤/ ٢٩٧.
(٢) إرشاد العقل السليم: ٧/ ١١٢، وانظر: أنوار التنزيل: ٤/ ٣٨٣.
(٣) فتح القدير: ٤/ ٤٣١.

حب الخير عن ذكر ربي. أو جعلت حب الخير مجزياً أو مغنياً عن ذكر ربي"[١].

ففي الآية اتساع في المعنى وإيجاز للفظ بنظم محكَم معجِز.

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٢٣].

وأيضاً في قوله تعالى: " ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ عدّى ﴿تَلِينُ﴾ بـ ﴿إِلَىٰ﴾ لتضمينه فعلاً يتعدّى بها، كأنه قيل: سكنت واطمأنت إلى ذكر الله لينة غير منقبضة"[٢].

يقول الزمخشري: "فإن قلت: ما وجه تعدية (لان) بـ (إِلَى)؟ قلت: ضمن معنى فعل متعدٍّ بـ (إِلَى)، كأنه قيل: سكنت، أو اطمأنت إلى ذكر الله لينة غير منقبضة، راجية غير خاشية"[٣].

فبالتضمين عبَّرت الآية الكريمة عن معنيي اللين والطمأنينة بلفظ واحد من أقرب سبيل.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الشورى: ٤٢/ ٢٥].

وكذلك جمع قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ معنيي القَبول والصفح، يدلُّ على الأول الفعل، وعلى الثاني تعدِّيه بـ (عن)، والتقدير: يَقْبَلُ التَّوْبَةَ صافحاً عَنْ عِبَادِهِ.

---

(١) الكشاف: ٤/ ٩٣.
(٢) فتح القدير: ٤/ ٤٥٩.
(٣) الكشاف: ٤/ ١٢٦.

يقول الألوسي: "وتعدية القبول بـ (عن) لتضمُّنه معنى التجاوز والعفو، أي: يقبل ذلك متجاوزاً عن ذنوبهم التي تابوا عنها"(١).

وجعل الزركشي الصفح مضمَّناً في التوبة لا في القبول فقال في الآية: "جاء بـ (عن)؛ لأنه ضمّن التوبة معنى العفو والصفح"(٢).

وأيّاً كان فإن في الآية الكريمة اتساعاً لمعنى الصفح مع القبول والتوبة عبَّرت عنه بلفظ وجيز.

قال تعالى: ﴿فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ﴾ [القلم: ٦٨/ ٢١-٢٢].

وكذلك تعدية الغدو بـ (على) في قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ﴾ يجعل الفعل مشتملاً على معنى الإقبال أو الاستيلاء تضميناً، والتقدير: اغْدُوا مقبلين عَلَى حَرْثِكُمْ.

يقول الزمخشري: "فإن قلت: هلا قيل: اغدوا إلى حرثكم؛ وما معنى على؟ قلت: لما كان الغدو إليه ليصرموه ويقطعوه: كان غدواً عليه كما تقول: غدا عليهم العدو. ويجوز أن يضمن الغدو معنى الإقبال كقولهم: يغدى عليه بالجفنة ويراح، أي: فأقبلوا على حرثكم باكرين"(٣).

فجمعت الآية بالتضمين معنيي الإقبال والتبكير بلفظ واحد إيجازاً في اللفظ واتساعاً في المعنى.

قال تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان: ٧٦/ ٦].

مما ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ حمل الآية على

(١) روح المعاني: ١١/ ١٥.
(٢) البرهان: ٣/ ٣٣٩.
(٣) الكشاف: ٤/ ٥٩٥.

التضمين، وكذلك قوله: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: ٨٣/٢٨]، إذ في كل منهما تعدي الشرب بالباء، وأصله أن يتعدى بنفسه، فكان من أقوال المفسرين تضمين الفعل معنى فعل يتعدَّى بالباء، كالارتواء أو الالتذاذ.

يقول البيضاوي: "﴿يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ أي: ملتذاً بها، أو ممزوجاً بها، وقيل: الباء مزيدة، أو بمعنى (من)؛ لأن الشرب مبتدأ منها"(١).

وجاء في البحر: "﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ أي يمزج شرابهم بها، أتى بالباء الدالة على الإلصاق، والمعنى: يشرب عباد الله بها الخمر، كما تقول: شربت الماء بالعسل، أو ضمن يشرب معنى (يروى) فعدَّى بالباء"(٢).

ويقول الزركشي في الآية: "ضمن ﴿يَشْرَبُ﴾ معنى (يروى)؛ لأنه لا يتعدى بالباء، فلذلك دخلت الباء، وإلا فـ ﴿يَشْرَبُ﴾ يتعدى بنفسه، فأُرِيد باللفظ الشرب والري معاً، فجمع بين الحقيقة والمجاز في لفظ واحد. وقيل: التجوز في الحرف، وهو الباء، فإنها بمعنى (من). وقيل: لا مجاز أصلاً، بل العين ها هنا إشارة إلى المكان الذي ينبع منه الماء، لا إلى الماء نفسه، نحو نزلت بعين، فصار كقوله: مكاناً يشرب به"(٣).

فقد جمعت الآية معنيي الشرب والارتواء تضميناً، والمعنى يزداد اتساعاً بالاحتمالات الأخرى تضميناً وغير تضمين. يقول أبو حيان: "﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ أي يشربها، أو منها، أو ضمن ﴿يَشْرَبُ﴾ معنى (يروى بها)، أقوال"(٤).

---

(١) أنوار التنزيل: ٥/ ٤٢٦.
(٢) البحر المحيط: ٨/ ٣٨٧.
(٣) البرهان: ٣/ ٣٣٨-٣٣٩.
(٤) البحر المحيط: ٨/ ٤٣٤.

قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين: ٨٣/ ١-٣].

وفي قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ تضمين الاستيلاء والتسلط في الاكتيال، بدليل التعدِّي بـ (على)، فكأنه قال: الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ متسلطين عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ.

يقول الألوسي: "وتبديل كلمة (على) بـ (من) هنا قيل لتضمين الاكتيال معنى الاستيلاء"(١)، ويؤيد د. فاضل هذا المعنى مفرِّقاً بين المعنيين قائلاً: "والظاهر أنه هو الصواب؛ لأن هنالك فرقاً بين قولك: اكتال منه، واكتال عليه، فاكتال منه لا يفيد أنه ظلمه حقه، وهضمه ماله، بخلاف اكتال عليه، فإن فيه معنى التسلّط والاستعلاء، وهذا في المطففين، قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾، فهم إذا أخذوا منهم أخذوا أكثر من حقهم، وإذا أعطوهم أعطوهم أقل من حقهم، ففيه إذن من معنى التحكم والجور والظلم وهو أبلغ من (من) هنا، وليست بمعنى (من)، ولا تفيد (من) هذا المعنى"(٢).

والخلاصة أن تعدِّي الاكتيال بـ (على) وسع المعنى ليشمل الكيل والتسلط معاً بتعبير موجز.

وأخيراً حسبنا من التضمين ما ذكرنا؛ فإنه باب في العربية واسع، وفي القرآن منه كثير، "قال أبو الفتح في كتاب التمام: أحسِبُ لو جمع ما جاء منه لجاء منه كتاب يكون مئين أوراقا"(٣)، ويقول في الخصائص:

---

(١) روح المعاني: ٣٠/ ٦٨.
(٢) معاني النحو: ٣/ ٤٥.
(٣) مغني اللبيب: ٨٩٧-٨٩٩.

"وجدت في اللغة من هذا الفن شيئاً كثيراً، لا يكاد يُحاط به، ولعله لو جُمع أكثره (لا جميعه) لجاء كتاباً ضخماً وقد عرفت طريقه. فإذا مر بك شيء منه فتقبَّله وأْنس به؛ فإنه فصل من العربية لطيف حسن يدعو إلى الأنس بها والفقاهة فيها"[1].

ثانياً - الحذف:

الحذف وسيلة من الوسائل البلاغية التي اعتمدها الخطاب القرآني في توسيع دلالاته في كثير من آياته الكريمة، وقد تنوع الحذف بين حروف ومفردات وتراكيب، وفيما يأتي نستعرض نماذج من الخطاب القرآني اتسعت فيها المعاني، وتعددت الاحتمالات نتيجة لحذف حرف أو اسم أو فعل، وربما جملة:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢/ ٦١].

التقدير في جزم المضارع ﴿يُخْرِجْ﴾ أن يكون مجزوماً بلام الأمر، أي: لِيُخْرِجْ. ولكن في حذف اللام والإتيان بالفعل مجزوماً على هذه الصورة فائدتان:

الأولى: الإلماح إلى التأدُّب مع جناب الخالق عز وجلّ من أن يُذكر في حقه لام الأمر صراحة، فتحذف اللام إجلالاً والمعنى على إرادتها.

الثانية: ذكر اللام يجعل العبارة نصّاً في الأمر، وحذفها يجعل التعبير محتملاً للأمر والشرط، فقد يكون المعنى: ادع ربك أن يخرجَ لنا مما تنبت الأرض؛ فإنك مجاب الدعاء إن تدع ربك يخرجْ.

---

(١) الخصائص: ٢/ ٣١٠.

يقول ابن عاشور: "وجملة ﴿يُخْرِجْ لَنَا﴾ إلى آخرها هي مضمون ما طلبوا منه أن يدعو به فهي في معنى مقول قول محذوف، كأنه قيل: قل لربك يخرج لنا. ومقتضى الظاهر أن يقال: أن يخرج لنا، فعدل عن ذلك إلى الإتيان بفعل مجزوم في صورة جواب طلبهم إيماء إلى أنهم واثقون بأنه إن دعا ربه أجابه، حتى كأنَّ إخراج ما تنبت الأرض يحصل بمجرد دعاء موسى ربه"(١).

ويقول د. فاضل: "فإن هذا يحتمل الشرط، والمعنى إن تدع ربك يخرج لنا، بخلاف ما لو دعوناه نحن، والمعنى: أنه يستجيب لك ولا يستجيب لنا،... ويحتمل الأمر، أي: ليخرجْ ولكنه حذف اللام إكباراً وإجلالاً للذات العلية من أن يصرح معها بلام الأمر، وهذا شأن كثير مما حذف فيه اللام. والله أعلم"(٢).

فحذف اللام وسَّع دلالة الخطاب ليشمل معنيي الأمر وجواب الشرط، علاوة على ما فيه من أدب الخطاب في حق الخالق جلَّ وعلا.

وما قيل في هذه الآية ورد في قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء: ١٧/ ٥٣]، وقوله تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٣١]؛ إذ ذهب بعض المفسرين إلى أن المعنى: إن تقل لهم يقيموا الصلاة، وهو جواب شرط مقدر، وذهب آخرون إلى أنه على تقدير لام الأمر، أي: قل لعبادي ليقيموا الصلاة.

يقول القرطبي: "أي: قل لهم أقيموا. والأمر معه شرط مقدر، تقول: أطع الله يدخلك الجنة، أي: إن أطعته يدخلك الجنة. هذا قول

(١) التحرير والتنوير: ١/ ٥٠٥.
(٢) معاني النحو: ٤/ ٢٠.

الفراء. وقال الزجاج: ﴿يُقِيمُواْ﴾ مجزوم بمعنى اللام، أي: ليقيموا. فأسقطت اللام لأن الأمر دلَّ على الغائب بـ ﴿قُل﴾. قال: ويحتمل أن يقال: ﴿يُقِيمُواْ﴾ جواب أمر محذوف، أي: قل لهم أقيموا الصلاة يقيموا الصلاة"[(١)].

وكذلك قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية: ٤٥/ ١٤]؛ إذ الفعل ﴿يَغْفِرُواْ﴾ يحتمل أن يكون مجزوماً بلام الأمر مقدرة على أن ذلك مقول القول، ويحتمل أن يكون جواب شرط مقدر، أي: إن تقل لهم يَغْفِرُوا.

يقول ابن عاشور: "وجزْم ﴿يَغْفِرُواْ﴾ على تقدير لام الأمر محذوفاً، أي: قل لهم ليغفروا، أو هو مجزوم في جواب ﴿قُل﴾، والمقول محذوف دلَّ عليه الجواب. والتقدير: قل للذين آمنوا اغفروا يغفروا. وهذا ثقة بالمؤمنين أنهم إذا قال لهم الرسول ﷺ امتثلوا. والوجهان يتأتَّيان في مثل هذا التركيب كلما وقع في الكلام"[(٢)]. فإسقاط اللام أكسب الآية معنيي الشرط والأمر معاً من أقرب سبيل.

قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ٨٨].

في قوله تعالى: ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ حذف للموصوف وذكر للصفة ﴿قَلِيلًا﴾ مما يؤدي إلى احتمالات إعرابية متولدة من المعاني التي يمكن فهمها من تأويل المحذوف في الآية الكريمة؛ فقد تكون القلة في الإيمان، وقد تكون في المؤمنين، وقد تكون في الوقت.

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٩/ ٣٦٦.
(٢) التحرير والتنوير: ٢٥/ ٣٥٩.

يقول ابن عطية: "و﴿قَلِيلًا﴾ نعت لمصدر محذوف تقديره فإيماناً قليلاً ما يؤمنون، والضمير في ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ لحاضري محمد ﷺ، ويتجه قلة هذا الإيمان: إما لأن من آمن بمحمد منهم قليل، فيقل لقلة الرجال، قال هذا المعنى قتادة، وإما لأن وقت إيمانهم عندما كانوا يستفتحون به قبل مبعثه قليل، إذ قد كفروا بعد ذلك، وإما لأنهم لم يبق لهم بعد كفرهم غير التوحيد على غير وجهه، إذ هم مجسمون، فقد قللوه بجحدهم الرسل وتكذيبهم التوراة، فإنما يقلُّ من حيث لا ينفعهم كذلك، وعلى هذا التأويل يجيء التقدير فإيماناً قليلاً، وعلى الذي قبله فوقتاً قليلاً، وعلى الذي قبله فعدداً من الرجال قليلاً"(١).

فحذف الموصوف أكسب الآية ثلاثة احتمالات في المعنى بأوجز عبارة.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢/ ١٢٦].

وكذلك ﴿قَلِيلًا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا﴾؛ إذ هي صفة لمحذوف، قد يكون التمتيع، وقد يكون الزمان، يقول العكبري: "﴿قَلِيلًا﴾ نعت لمصدر محذوف، أو لظرف محذوف"(٢).

ويقول د. فاضل: "مما ينوب عن الظرف صفته نحو ﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا﴾، أي زمناً قليلاً، ويحتمل أن يكون المعنى تمتيعاً قليلاً، فيكون نائباً عن المصدر، وهو ما يفيد معنيين"(٣).

---

(١) المحرر الوجيز: ١/ ١٧٧.
(٢) التبيان في إعراب القرآن: ١/ ٦٣.
(٣) معاني النحو: ٢/ ١٦٥.

فبالحذف اتسعت دلالة الآية الكريمة للمصدر والزمان معاً بعبارة واحدة، ولو عيَّن الموصوف لقيَّد المعنى بالمذكور.

قال تعالى: ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ﴾ [البقرة: ٢/ ١٩٦].

في قوله تعالى: ﴿فِى ٱلْحَجِّ﴾ حذف يوسِّع المعنى، ويوسِّع دائرة الفتوى بين الفقهاء؛ نتيجة اختلافهم في تأويل المضاف المحذوف، فمنهم من رآه زمان الحج، ومنهم من رآه مكان الحج.

يقول القرطبي: "فإن قوله ﴿أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ﴾ يحتمل أن يريد موضع الحج، ويحتمل أن يريد أيام الحج. فإن كان المراد أيام الحج فهذا القول صحيح؛ لأن آخر أيام الحج يوم النحر، ويحتمل أن يكون آخر أيام الحج أيام الرمي؛ لأن الرمي عمل من عمل الحج خالصاً وإن لم يكن من أركانه. وإن كان المراد موضع الحج صامه ما دام بمكة في أيام منى"[(١)].

فحذف المضاف أدَّى إلى اتساع الدلالة في الآية، وإلى اتساع الفقهاء في الحكم المترتب على تقدير المحذوف، ولو ذكر المحذوف لقيَّد المعنى إما بزمان الحج، وإما بمكانه، ولكن بالحذف جمعهما معاً من أقرب سبيل وأوجزه.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٦٤].

آثر النظم الكريم في هذه الآية أن يسبك النهي عن المراءاة في الإنفاق مجرداً من حرف العلة مع أن التعليل مراد؛ وذلك ليضيف إلى معنى التعليل معنيين آخرين لا يصح تقديرهما مع حرف العلة، وهما الحال والعلة.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٢/ ٤٠٠.

يقول د. فاضل: "فإذا أردت التنصيص على العلة جئت بحرف العلة، وإن أردت التوسع في المعنى أسقطت الحرف، فتكسب أكثر من معنى، فإذا قلت مثلاً: (ينفق ماله لمراءاة الناس) جعلت المراءاة علة، وإذا قلت: (ينفق ماله رئاء) أفدت ثلاثة معان في آن واحد، وهي العلة كما ذكرت، أي: ينفق ماله للمراءاة، والحالية: أي ينفق ماله مرائياً، والمفعولية المطلقة، أي ينفق ماله إنفاق رئاء أو يرائي رئاء"(١).

يجمل البيضاوي هذه الاحتمالات في المعنى بقوله: "و﴿رِئَآءَ﴾ نصب على المفعول له، أو الحال بمعنى مرائياً، أو المصدر، أي: إنفاق رئاء"(٢).

فحذف حرف العلة وسَّع المعنى، ولو قال (لرئاء الناس) لاقتصرت الآية على معنى واحد، أو لاحتاجت إلى جملتين أخريين للتعبير عن معنيي الحال والمصدر، ولكن حذف اللام أفاد ثلاثة المعاني مجتمعة، فزاد المعنى بنقص اللفظ، وحسن السبك.

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ [آل عمران: ٣/ ٤١].

وردت الكثرة في آيتين متقاربتين، في هذه الآية ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا﴾، وفي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٤١]، غير أنه في الأولى حذف الموصوف، وفي الثانية نصَّ عليه فقال: ﴿ذِكْرًا كَثِيرًا﴾، وفي الحذف توسيع للمعنى، وفي الذكر تقييد؛ ذلك أنه في الثانية تعيَّن الموصوف وهو الذكر، أما في الأولى فمحتمل لأمرين:

---

(١) معاني النحو: ٢/ ١٩٩، وانظر: التبيان في إعراب القرآن: ١/ ١١٢.
(٢) أنوار التنزيل: ١/ ٥٦٦.

أحدهما: المصدر، فيكون المعنى كما في الثانية، أي: وَاذْكُر ربَّكَ ذِكْراً كَثِيراً. والآخر: أن يقدر المحذوف زماناً، فيكون المعنى: وَاذْكُر ربَّكَ وقتاً كَثِيراً. يقول الألوسي: "﴿كَثِيرًا﴾ صفة لمصدر محذوف أو زمان كذلك، أي: ذكراً كثيراً، وزماناً كثيراً"(١).

ويقول د. فاضل: "إن من أهم أغراض النيابة التوسع في المعنى، فالإتيان بنائب المصدر قد يوسع المعنى توسيعاً لا يؤديه ذكر المصدر، وذلك كالمجيء بصفة المصدر بدلاً منه، فإنك إذا حذفت المصدر وجئت بصفته فربما احتمل معنى جديداً لم يكن ذكر المصدر يفيده ولا يحتمله، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ [آل عمران: ٣/ ٤١]، فهنا تحتمل كلمة ﴿كَثِيرًا﴾ أن يراد بها الدلالة على المصدر، أي ذكراً كثيراً، ويحتمل أن يراد به الدلالة على الوقت، أي زمناً كثيراً، فهذا تعبير يحتمل معنيين في آن واحد، بخلاف ما لو ذكرت الموصوف، فإنه لا يدل إلا على معنى واحد، وقد يكون المعنيان مطلوبين، أي ذكراً كثيراً زمناً كثيراً فتكسبهما بالحذف، فيكون الحذف قد أدى معنيين في آن واحد، وهذا توسع في التعبير وزيادة في المعنى"(٢).

ومن هذا القبيل قوله تعالى في وصف المنافقين: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٤/ ١٤٢]، أي: إِلَّا ذكراً قَلِيلاً، أو وقتاً قَلِيلاً.

وأيضاً قوله تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [التوبة: ٩/ ٨٢]، يحتمل الوجهين جميعاً، أي بدل أن يقول: فليضحكوا ضحكاً قليلاً وقتاً قليلاً، وليبكوا بكاءً كثيراً وقتاً كثيراً قال: ﴿فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا﴾ فأدى المعنيين معاً.

---

(١) روح المعاني: ٣/ ١٥٢.

(٢) معاني النحو: ٢/ ١٣٨-١٣٩.

وكذلك قوله تعالى: ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ۝٣٣ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ [طه: ٢٠/ ٣٣-٣٤]، يحتمل المصدر والظرف في التسبيح والذكر معاً، أي: كَيْ نُسَبِّحَكَ تسبيحاً كَثِيراً وقتاً كثيراً، وَنَذْكُرَكَ ذكراً كثيراً وقتاً كَثِيراً، ولكنه استغنى عن كل ذلك بحذف الموصوفين، فأفاد الظرف والمصدر في الموضعين معاً بالإضافة إلى الإيجاز في اللفظ.

يقول القرطبي: "و ﴿كَثِيرًا﴾ نعت لمصدر محذوف. ويجوز أن يكون نعتاً لوقت، والإدغام حسن، وكذا ﴿وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾"(١).

وقس على ذلك قوله تعالى: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ١٦]، أي: تمتيعاً قليلاً، أو زماناً قليلاً(٢).

فالخطاب القرآني حين يريد التنصيص على المصدرية، يأتي بالمصدر، كما رأينا، وحين يريد الجمع بين معنيين كالمصدرية والظرفية يحذف الموصوف فيُفيدهما معاً بأقل الألفاظ وأوجز التعابير.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٧٥].

الفعل ﴿يُخَوِّفُ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ يتعدَّى إلى مفعولين ذُكر أحدهما وحُذف الآخر، وهذا الحذف يُفيد احتمالين في المعنى:

أحدهما: أن يكون المفعول المحذوف هو الأول والمذكور الثاني، كما تقول: فلان يعطي الدنانير، أي: يعطي الناس الدنانير. والتقدير:

(١) الجامع لأحكام القرآن: ١١/ ١٩٤.
(٢) البحر المحيط: ٧/ ٢١٣.

يخوفكم أولياءه، أي: الشيطان يخوف المؤمنين من أوليائه أو بأوليائه. ونظيره قوله عز وجل: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا﴾ [الكهف: ١٨/ ٢].

والثاني: أن يكون المفعول المحذوف هو الثاني والمذكور الأول، والتقدير: الشيطان يخوف أولياءه شر الآخرين، أي: إنه لا يتعدَّى تخويفه المنافقين والكافرين.

يقول أبو حيان: "والتشديد في ﴿يُخَوِّفُ﴾ للنقل، كان قبله يتعدّى لواحد، فلما ضعف صار يتعدّى لاثنين. وهو من الأفعال التي يجوز حذف مفعوليها وأحدهما اقتصار أو اختصار، أو هنا تعدّى إلى واحد، والآخر محذوف. فيجوز أن يكون الأوّل ويكون التقدير: يخوفكم أولياء، أي: شر أوليائه في هذا الوجه؛ لأن الذوات لا تخاف، ويكون المخوفون إذ ذاك المؤمنين. ويجوز أن يكون المحذوف المفعول الثاني، أي: يخوّف أولياءه شرّ الكفار، ويكون أولياءه في هذا الوجه هم المنافقون، ومَن في قلبه مرض، المتخلفون عن الخروج مع رسول الله ﷺ أي: إنه لا يتعدّى تخويفه المنافقين، ولا يصل إليكم تخويفه"(١).

وبهذا نرى أن حذف أحد المفعولين أكسب الآية الكريمة معنيين مرادين معاً من أيسر سبيل، ولو أراد تعيين أحدهما لما حذف المفعول.

قال تعالى: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ [النساء: ٤/ ١٢٧].

سبق أن أشرنا إلى أثر (الواو) في الدلالة على معنيي النفي والإثبات في قوله تعالى: ﴿لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾؛ إذ

(١) نفسه: ٣/ ١٢٥.

جعلت الآية تحتمل النفي بالعطف على النفي السابق، أي: (ولا ترغبون). وتحتمل الإثبات بالحال، أي: (وأنتم ترغبون).

غير أن هذين المعنيين يتحققان من طريق آخر غير طريق (الواو)، ألا وهو طريق الحذف؛ ذلك أن الفعل (رغب) يتعدَّى بـ (في) ويعني الإقبال على الشيء، ويتعدَّى بـ (عن) ويدلُّ على النفور من الشيء، جاء في القاموس: "(رَغِبَ فيه) كَسَمِعَ رَغْباً ويُضَمُّ ورَغْبَةً: أرادَهُ كارْتَغَبَ. (و) عنه: لم يُرِدْهُ"[(١)]. وحذف الحرف يجعل الآية تحتمل الرغبة في نكاحهن إن كنَّ جميلات، والرغبة عن نكاحهن إن كنَّ دميمات.

يقول ابن هشام: "﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ أي: (في أن)، أو (عن) على خلاف في ذلك بين المفسرين. ومما يحتملهما قوله:

ويرغب أن يبني المعاليَ خالدٌ ويرغب أن يرضى صنيع الألائم

أنشده ابن السيد، فإن قدِّر (في) أولاً و(عن) ثانياً فمدح، وإن عكس فذم"[(٢)].

يقول ابن عطية: "﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ إن كانت الجارية غنية جميلة فالرغبة في نكاحها، وإن كانت بالعكس فالرغبة عن نكاحها، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يأخذ الناس بالدرجة الفضلى في هذا المعنى، فكان إذا سأل الولي عن وليته فقيل هي غنية جميلة قال له: اطلب لها من هو خير منك وأعود عليها بالنفع، وإذا قيل له هي دميمة فقيرة قال له: أنت أولى بها وبالستر عليها من غيرك"[(٣)].

فالمَعْنَيان هُنا صَالِحَان، وكلٌّ من الحَرْفَيْن مراد بحسب الحال، فبدل

---

(١) القاموس المحيط: (رغب).
(٢) مغني اللبيب: ٦٨٢.
(٣) المحرر الوجيز: ٢/١٤١٨.

أن يقول: وَتَرْغَبُونَ في أَن تَنكِحُوهُنَّ إن كنَّ جميلات موسرات، وَتَرْغَبُونَ عن أَن تَنكِحُوهُنَّ إن كنَّ دميمات فقيرات، استعاض عن هذه الإطالة بحذف حرف الجر فشمل المعنيين من أقرب سبيل إيجازاً واتساعاً.

قال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ [النساء: ٤/ ١٦٠].

في قوله تعالى: ﴿وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ حذفان يوسعان دلالة الخطاب أيما اتساع:

أولهما: حذف المفعول مما يولِّد معنيين؛ أحدهما: أن يكون صدّهم بإعراضهم عن سبيل الله، فيكون المفعول (أنفسهم). والآخر: أن يكون الصدُّ لغيرهم.

يقول الثعالبي: "﴿وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ يحتمل أن يريد صدهم في ذاتهم، ويحتمل أن يريد صدهم غيرهم"(١).

والحذف الثاني: حذف الموصوف بالكثرة، إذ يحتمل أن يكون المراد بـ ﴿كَثِيرًا﴾ المصدر، أي: صدّاً كثيراً، ويحتمل أن يراد به الوقت، أي: وقتاً كثيراً، ويحتمل أن يراد به الخلق، أي: خلقاً كثيراً، فجمعت الآية الكريمة ثلاثة معان في آن واحد بحذف الموصوف.

يقول أبو حيان: "﴿وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ أي: ناساً كَثِيراً، فيكون كَثِيراً مفعولاً بالمصدر، وإليه ذهب الطبري. قال: صدُّوا بجحدهم أمر محمد ﷺ جمعاً عظيماً من الناس، أو صدّاً كَثِيراً. وقدره بعضهم زماناً كَثِيراً"(٢).

---

(١) الجواهر الحسان: ١/ ٤٣٣.

(٢) البحر المحيط: ٣/ ٤١١، ومعاني النحو: ٢/ ١٤٠.

فاتسعت الآية الكريمة لخمسة معان مستفادة من الحذفين، فبدل أن يقول:

وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ الله خلقاً كَثِيراً.

وَبِصَدِّهِمْ غيرهم عَن سَبِيلِ الله صدّاً كَثِيراً.

وَبِصَدِّهِمْ غيرهم عَن سَبِيلِ الله زماناً كَثِيراً.

وَبِصَدِّهِمْ أنفسهم عَن سَبِيلِ الله صدّاً كَثِيراً.

وَبِصَدِّهِمْ أنفسهم عَن سَبِيلِ الله زماناً كَثِيراً.

استعاض عن هذه الإطالة كلها بحذف المفعول والموصوف، فاتسع في المعاني وأوجز في العبارة.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ﴾ [النساء: ٤/ ١٧١].

في قوله تعالى: ﴿ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا﴾ حذف يولِّد ثلاثة معان باختلاف تقدير المحذوف، وهي:

الأول: أن يكون المحذوف فعلاً وحرف عطف، أي: انتَهُواْ وأتوا خَيْراً لَّكُمْ.

الثاني: أن يكون المحذوف جواب الطلب، أي: انتَهُواْ يكن الانتهاء خَيْراً لَّكُمْ.

الثالث: أن يكون المحذوف المصدر الموصوف بالخيرية، أي: انتَهُواْ انتهاءً خَيْراً لَّكُمْ.

يقول ابن هشام: "﴿ٱنتَهُواْ خَيۡرًا لَّكُمۡۚ﴾ أي: وأتوا خيراً، وقال الكسائي: يكن الانتهاء خيراً، وقال الفراء: الكلام جملة واحدة، وخيرًا نعت لمصدر محذوف، أي انتهاءً خيراً"(١).

وشبيه بهذه الآية قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيۡرًا لِّأَنفُسِكُمۡۗ﴾ [التغابن: ١٦/٦٤]، يقول أبو حيان: "﴿خَيۡرًا﴾ منصوب بفعل محذوف تقديره: وأتوا خيراً، أو على إضمار يكن فيكون خبراً، أو على أنه نعت لمصدر محذوف، أي إنفاقاً خيراً"(٢).

فاتسعت الآية بالحذف إلى ثلاثة تقديرات مختلفة ومرادة في الوقت نفسه، ولو ذكر المحذوف لتعيَّن معنى واحد لا غير، ولكن النظم القرآني أراد كل تلك المعاني فجمعها بالحذف إيجازاً واتساعاً.

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة: ٥/ ٢٥].

قوله تعالى: ﴿لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ﴾ فيه معنيان:

أحدهما: على ظاهر اللفظ من الجمع بين ملك النفس والأخ بالعطف، أي: لا أملك إلا نفسي وإلّا أخي.

والثاني: على تقدير حذف في الكلام، أي: لا أملك إلا نفسي، وأخي لا يملك إلا نفسه.

يقول القرطبي: "قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ﴾ لأنه كان يطيعه. وقيل: المعنى: إني لا أملك إلا نفسي، ثم ابتدأ فقال ﴿وَأَخِيۖ﴾، أي: وأخي أيضاً لا يملك إلا نفسه، فـ (أَخِي) على القول

(١) مغني اللبيب: ٨٢٧-٨٢٨.
(٢) البحر المحيط: ٨/ ٢٧٦.

الأول في موضع نصب عطفاً على نفسي، وعلى الثاني في موضع رفع"[١].

ولو ذكر المحذوف لتعيَّن المعنى الثاني، ولكنه بالحذف كسب المعنيين جميعاً من أقرب سبيل.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٤].

ورد فعل الأمر في القرآن الكريم متعدياً بالباء كقوله تعالى: ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٦٣]، وقوله: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ [طه: ٢٠/ ١٣٢]، والباء تدل على المأمور به.

وورد أيضاً متعدياً باللام كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الزمر: ٣٩/ ١١-١٢]، ودلالة اللام التعليل. يقول البيضاوي في الآية: "وأمرت بذلك لأجل أن أكون مقدمهم في الدنيا والآخرة؛ لأن قصب السبق في الدين بالإخلاص، أو لأنه أول من أسلم وجهه لله من قريش ومن دان بدينهم، والعطف لمغايرة الثاني الأول بتقييده بالعلة، والإشعار بأن العبادة المقرونة بالإخلاص وإن اقتضت لذاتها أن يؤمر بها فهي أيضاً تقتضيه لما يلزمها من السبق في الدين"[٢].

غير أن الفعل نفسه ورد مجرداً من حرف الجر في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٤]، وفي ثلاثة مواضع أخر من القرآن الكريم[٣].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٦/ ١٢٨.

(٢) أنوار التنزيل: ٥/ ٦١.

(٣) انظر سورة يونس ١٠/ ٧٢، ١٠٤، وسورة النمل ٢٧/ ٩١.

فهذه المواضع تحتمل تقدير اللام للتعليل قياساً على آية الزمر، وتحتمل تقدير الباء للمأمور به قياساً على آيتي الأنعام وطه السابقتين، وكلا المعنيين مراد، وحذف الحرف أفاد المعنيين جميعاً.

قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٥٥].

ورد الأمر بالتقوى مقيداً بسبعة مفاعيل في القرآن الكريم؛ فقد أمرنا الله عزَّ وجلَّ باتقاء النار في قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٤]، وأمرنا باتقاء يوم القيامة بوصفين، أحدهما: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ [البقرة: ٢/ ٤٨]، والآخر: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٨١]، وأمرنا باتقائه جلَّ وعلا بقوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ١٨٩]، وباتقاء الرب ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ [النساء: ٤/ ١]، وباتقاء الفتنة ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأنفال: ٨/ ٢٥]، وباتقاء ما بين أيدينا وما خلفنا بقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [يس: ٣٦/ ٤٥].

غير أنه في قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٥٥]، وفي قوله: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ١٢/ ٩٠] حذف المفعول إذ لم يقيد الفعل بشيء محدد، بل أطلقه في كل ما ينبغي اتقاؤه؛ لتشمل جميع المعاني المقيدة التي وردت آنفاً في المواضع السبعة، وقد أشار إليها قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: ٩/ ١١٥].

وخلاصة القول أن حذف المفعول في هذه الآية ونظائرها يوسع آفاق المعنى، فيجمع اتقاء النار، واتقاء يوم لا تجزي نفس عن نفس شيئاً،

واتقاء يوم نرجع فيه إلى الله، واتقاء الله، واتقاء ربنا، واتقاء فتنة لا تصيب الظالمين خاصة، واتقاء ما بين أيدينا وما خلفنا، يجمع كل تلك المعاني مجتمعة بتعبير واحد حذف منه المفعول.

قال تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٧/ ٥٦].

الخوف والطمع في الآية الكريمة يدلان على التعليل، كأنه قال: ادعوه لأجل الخوف والطمع، ولكن الخطاب القرآني آثر حذف حرف العلة ونصب الخوف والطمع مما أغنى التعبير بمعنيين آخرين، هما الحال، والمفعول المطلق، ولو ذكر حرف العلة لما أفاد سوى معنى التعليل.

يقول د. فاضل: "يحتمل المفعول له، أي: للخوف والطمع، ويحتمل الحالية، أي: ادعوه خائفين وطامعين، ويحتمل المفعولية المطلقة، أي: ادعوه دعاء خوف وطمع. وهذه المعاني كلها مرادة. والله أعلم. فإنه أراد ادعوه للخوف، وأنتم في حالة خوف، ودعاء خوف، وهو اتساع كبير"(١).

وبهذا نرى أن المعنى اتسع اتساعاً كبيراً بإسقاط حرف الجر، فبدل أن يقول ثلاثة تعبيرات مختلفة قال تعبيراً واحداً جمعها كلها. بخلاف ما لو قال (ادعوه للخوف والطمع) فإنه يكون للتعليل فقط.

قال تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [التوبة: ٩/ ٤٣].

متعلق الإذن في قوله تعالى: ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ غير مذكور، وهو يحتمل معنيين:

---

(١) نفسه: ٢/ ٢٠٠، وانظر: ٢/ ٢٥٠.

أحدهما: لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ في القعود، ويؤيده قوله تعالى قبلاً: ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [التوبة: ٩/ ٤٢].

والآخر: لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ في الخروج؛ إذ لا مصلحة لكم في خروجهم، ويؤيده قوله تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التوبة: ٩/ ٤٧].

يقول القرطبي: "ثم قيل في (الإذن) قولان: الأول: لم أذنت لهم في الخروج معك وفي خروجهم بلا عدة ونية صادقة فساد. الثاني: لم أذنت لهم في القعود لما اعتلوا بأعذار"[(١)].

وجاء في البحر: "أي: لم أذنت لهم في القعود والتخلف عن الغزو حتى تعرف ذوي العذر في التخلف ممن لا عذر له؟ وقيل: متعلق الإذن هو الخروج معه للغزو، لما ترتب على خروجهم من المفاسد؛ لأنهم كانوا عيناً للكفار على المسلمين. ويدل عليه قوله: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ وكانوا يخذلون المؤمنين ويتمنون أن تكون الدائرة عليهم؛ فقيل: لم أذنت لهم في إخراجهم وهم على هذه الحالة السيئة؟ وبيّن بقوله: ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾"[(٢)].

فبالحذف احتملت الآية المعنيين، وكلاهما صحيح وله ما يؤيده، والجمع بين النقيضين غير عسير؛ إذ المعنى الجامع لهما (لم أذنت بالخروج لمن خرج منهم قبل أن تتبين حقيقة أمره، مع ما في خروجهم من المفاسد، ولم أذنت بالقعود لمن قعد منهم حتى تتبين ذوي العذر في التخلف ممن لا عذر له)، فاستغنى عن ذكر الجملتين والإطالة بحذف المتعلق فكسب المعنيين من أقرب سبيل إيجازاً واتساعاً.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٨/ ١٥٤-١٥٥.

(٢) البحر المحيط: ٥/ ٤٨.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَايْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [الرعد: ١٣/ ٣١].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ محذوف الجواب لغرض التوسع في المعنى، بحسب ما يقتضيه السياق، ويؤدي إليه الاجتهاد؛ ولذا فقد قدر الجواب بعضهم (لكان هذا القرآن) وقدره آخرون (لم يؤمنوا).

يقول البيضاوي: " ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ شرط حذف جوابه، والمراد منه تعظيم شأن القرآن، أو المبالغة في عناد الكفرة وتصميمهم، أي: ولو أن كتاباً زعزعت به الجبال عن مقارِّها .﴿أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ﴾ تصدعت من خشية الله عند قراءته، أو شققت فجعلت أنهاراً وعيوناً .﴿أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ فتسمع فتقرؤه، أو فتسمع وتجيب عند قراءته لكان هذا القرآن؛ لأنه الغاية في الإعجاز، والنهاية في التذكير والإنذار، أو لما آمنوا به "(١).

فحذف جواب الشرط يفيد توسيع المعنى لاحتمالات عدة تناسب السياق والمقام، وكل ذلك صحيح ومراد، ولو أراد تعيين أحد الاحتمالات لنصَّ على الجواب كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟﴾ [الأنعام: ٦/ ١١١]، ولكنه أراد إطلاق التعبير لعدة دلالات فحذف الجواب.

قال تعالى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ١٥/ ٩٤].

سبقت الإشارة إلى أن (ما) في هذه الآية تحتمل المصدرية

(١) أنوار التنزيل: ٣/ ٣٣٠.

والموصولية، والحق أن الذي يسهم في تفريع هاتين الدلالتين حذف الجار والمجرور؛ فلو قال: فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ به، لتقيَّد معنى (ما) بالاسم الموصول، ولكن حذف (به) وسع دلالتها لتشمل المصدر، أي: فاصدع بأمرك وشأنك. وكذلك الموصول، أي: فاصدع بالذي تؤمر به من الشرائع.

يقول ابن هشام: " ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ (ما) مصدرية، أي: بالأمر، أو موصول اسمي، أي: بالذي تؤمره"(١).

فحذف الجار والمجرور أكسب (مَا) معنيي الموصول والمصدر، فأغنت بالحذف عن عبارتين مجتمعتين.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ١٧/ ٥٢].

القليل المستثنى في الآية الكريمة يحتمل معنيين بحسب تقدير الموصوف المحذوف:

الأول: أن يكون المصدر، والتقدير: وَتَظُنُّونَ إِن لبِثْتُمْ إِلَّا لبثاً قَلِيلاً.

الثاني: أن يكون ظرف زمان، أي: وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا وقتاً قَلِيلاً.

يقول أبو حيان: "ويظهر أن انتصاب ﴿قَلِيلًا﴾ على أنه نعت لزمان محذوف، أي: إلّا زمناً قليلاً، كقوله: ﴿قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾. ويجوز أن يكون نعتاً لمصدر محذوف، أي: لبثاً قليلاً، ودلالة الفعل على مصدره دلالة قوية"(٢).

فحذف الموصوف أفاد معنيين مجتمعين، هما: وَتَظُنُّونَ إِن لبِثْتُمْ إِلَّا لبثاً قَلِيلاً وقتاً قَلِيلاً، ولو ذكر المحذوف لأفاد معنى واحداً، أو أطال

(١) مغني اللبيب: ٧٣٦.
(٢) البحر المحيط: ٦/ ٤٦.

بذكرهما معاً، ولكنه بحذف الموصوف أفادهما جميعاً مع إيجاز في التعبير.

قال تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ﴾ [طه: ٢٠/ ٧٩].

يُلحظ في الآية الكريمة ذكر مفعول ﴿أَضَلَّ﴾، وحذف مفعول ﴿هَدَىٰ﴾، والثاني معطوف على الأول، وفي هذا الحذف اتساع في المعنى لطيف؛ إذ في الأول تخصيص الإضلال بقومه، وفي الحذف نفي الهداية عن فرعون عموماً لنفسه ولقومه ولغيرهم.

يقول د. فاضل: "أي وما هداهم، غير أن الحذف هنا له غرض لطيف علاوة على الإيجاز، وذلك أنه أخرجه مخرج العموم، أي: إن فرعون لم يتصف بصفة الهداية البتة، وذلك أنه لو قال (وما هداهم) لكان عدم الهداية مقيداً بقومه، إذ يحتمل أنه هدى غيرهم، لكنه قال: ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾ أي ما هدى أحداً"(١).

وما قيل هنا من توسيع المعنى بحذف المفعول ينطبق على قوله تعالى في آدم (عليه السلام): ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ٢٠/ ١٢٢]، أي: وهداه، غير أنه أخرجه مخرج العموم فلم يقصر الهداية على آدم (عليه السلام)؛ لأن الله تعالى هداه وهدى كثيراً من خلقه سواه، فأفاد بالحذف هداية آدم (عليه السلام) خاصة، وهداية غيره عامَّة، فزاد في المعنى بنقص اللفظ.

قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [القصص: ٢٨/ ٥٨].

قوله تعالى: ﴿فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ﴾ يحتمل المستثنى الموصوف بالقلة ثلاثة معان:

(١) معاني النحو: ٢/ ٨١.

أولها: الوقت، أي: لم يسكنها أحد بعدهم إلا زمناً قليلاً كالذي يمرُّ بها مسافراً؛ فإنه يلبث فيها يوماً أو بعض يوم.

الثاني: المصدر، أي: لَمْ تُسْكَن من بَعْدِهِمْ إِلَّا سكناً قَلِيلاً.

الثالث: أن الاستثناء يرجع إلى المساكن، أي: لم تسكن بعد هلاك أهلها إلا قليلاً من المساكن، وأكثرها خراب.

يقول الألوسي: " ﴿لَمْ تُسْكَن مِّنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: إلا زمناً قليلاً؛ إذ لا يسكنها إلا المارة يوماً أو بعض يوم، أو إلا سكناً قليلاً، وقلته باعتبار قلة الساكنين، فكأنه قيل: لم يسكنها من بعدهم إلا قليل من الناس، وجوز أن يكون الاستثناء من المساكن، أي: إلا قليلاً منها سكن وفيه بعد"(١).

فحذف المستثنى الموصوف وإبقاء صفته وسَّع المعنى ليشمل الزمان والمكان والساكنين، فقلَّ اللفظ وكثر المعنى.

قال تعالى: ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٣٨/ ١-٥].

قد يكون جواب القسم مقصوداً بعينه فيذكر، كما في قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾ [مريم: ١٩/ ٦٨]، وقد يكون غير مقصود بعينه فيحذف ليتسع الخطاب لكل ما يحتمله المقام ويذهب ذهن المخاطب كل مذهب مما يحتمله سياق الكلام ومقامه فيكون كله مراداً أو محتملاً، كما في قوله تعالى: ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾، إذ فيه قسم محذوف

(١) روح المعاني: ٢٠/ ٩٨.

الجواب، وحذفه يفسح المجال لتقديرات عدة تناسب السياق والمقام.

يقول ابن هشام: "وأما ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ﴾ الآية فقيل: الجواب محذوف، أي: إنه لمعجز، بدليل الثناء عليه بقوله: ﴿ذِى ٱلذِّكْرِ﴾، أو إنك لمن المرسلين بدليل ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾، أو ما الأمر كما زعموا بدليل ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾"(١).

ويقول د. فاضل: "يحتمل أن يكون الجواب (لنهلكنهم) بدليل قوله تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾، ويحتمل أن يكون (لقد عجبوا من إنذارك)، أو (ليعجبن) بدليل قوله: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾، ويحتمل أن يكون الجواب (إنه لذكر لهم) أي شرف لهم، بدليل قوله ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾، ويحتمل أن يكون الجواب (ما الذين كفروا نازلين على حكم الحق بل الذين كفروا في عزة وشقاق) كل ذلك يحتمله السياق، ويحتمل غيره(٢).

وقل مثل ذلك في قوله تعالى: ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١ بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝٣ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ﴾ [ق: ٥٠/ ١-٤]، إذ الجواب يحتمل أن يكون (إنك لمنذر) بدليل قوله: ﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ ويحتمل أن يكون (ليبعثن) بدليل: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾، ويحتمل أن يكون ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾، ويحتمل غير ذلك.

جاء في البحر: "والجواب محذوف يدل عليه ما بعده، وتقديره: أنك جئتهم منذراً بالبعث، فلم يقبلوا (بَلْ عَجِبُوا)، وقيل: ما ردوا أمرك بحجة. وقال الأخفش والمبرد والزجاج: تقديره لتبعثن"(٣).

---

(١) مغني اللبيب: ٧١٢-٧١٣.

(٢) معاني النحو: ٤/ ١٦١.

(٣) البحر المحيط: ٨/ ١٢٠.

"هذه المعاني كلها مرادة، أو محتملة المراد، فيكون المعنى قد اتسع بحذف الجواب وشمل أبعاداً لم يكن يشملها بالذكر"(١).

قال تعالى: ﴿بَلْ كَانُواْ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الفتح: ٤٨/ ١٥].

الموصوف المحذوف في الآية الكريمة يحتمل تأويلين صحيحين؛ أولهما: أن يكون المراد فقهاً قليلاً، فيكون مفعولاً مطلقاً. الثاني: أن يكون المراد أنهم لا يفقهون إلا قليلاً من الأمور، فيكون مفعولاً به.

يقول د. فاضل: "وقد يُكتسب بحذف الموصوف معنى المفعولية والمصدرية،... قال تعالى: ﴿بَلْ كَانُواْ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الفتح: ٤٨/ ١٥]، فقد يحتمل أن يراد بـ (قليل) المفعولية، أي إلا قليلاً من الأمور، وقد يحتمل المصدرية، أي فقهاً قليلاً، وقد جمع المعنيين بحذف الموصوف، أي: إلا قليلاً من الأمور فقهاً قليلاً. والله أعلم"(٢).

والمعنيان مرادان، فهذا الحذف للتوسع في المعنى، ولو قال إلا فقهاً قليلاً، أو قليلاً من الأمور لتقيد المعنى بأمر واحد.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى: ٩٣/ ٦-٨].

حذف المفاعيل في هذه الآيات الكريمة عند كثير من المفسرين لرعاية الفواصل مع العلم بالمحذوف، وهو كاف الخطاب، يقول ابن عاشور: "وحذفت مفاعيل ﴿فَـَٔاوَىٰ﴾، ﴿فَهَدَىٰ﴾، ﴿فَأَغْنَىٰ﴾ للعلم بها من ضمائر الخطاب قبلها، وحذفُها إيجاز، وفيه رعاية على الفواصل"(٣).

(١) معاني النحو: ٤/ ١٦١.

(٢) نفسه: ٢/ ١٣٩.

(٣) التحرير والتنوير: ٣٠/ ٣٥٤.

غير أن في حذف المفاعيل دلالات أوسع من ذكرها مع ما في الحذف من رعاية الفواصل؛ فحذفها يوسع المعنى ليشمل عدة مفاعيل محتملة، يقول الألوسي: "ليدل على سعة الكرم، والمراد: آواك وآوى لك وبك، وهداك ولك وبك، وأغناك ولك وبك"(١).

فحذف المفعول أكسب كل فعل ثلاثة معان، وكلها مرادة والله أعلم، ولو قال: (فآواك، فهداك، فأغناك) لقصر اللفظ على معنى واحد، أو لاحتاج إلى تكرار كل فعل مع ذكر مفاعيله؛ ليؤدي تلك المعاني، وذلك من الإطالة والبعد عن الفصاحة بمكان لا يحتاج إلى بيان.

ثالثاً - الاستخدام:

في فنون البلاغة العربية مصطلحان كثيراً ما يلتبس أحدهما بالآخر، ألا وهما: التورية والاستخدام، والفرق بينهما أن التورية استعمال لفظ له معنيان: أحدهما قريب لا يُراد، والآخر بعيد وهو المراد، والقصد من التورية التعمية على المتلقي، وفي الاستخدام استعمال اللفظ بمعنييه معاً بقرينتين. وحاصله أن المشترك إن استعمل في مفهومين معاً فهو الاستخدام، وإن أريد أحدهما مع لمح الآخر باطناً فهو التورية.

يقول ابن حجة الحموي: "الاستخدام: هو استفعال من الخدمة، وأما في الاصطلاح فقد اختلفت العبارات في ذلك على طريقين:

الأولى: طريقة صاحب الإيضاح ومن تبعه ومشى عليها كثير من الناس، وهي أن الاستخدام إطلاق لفظ مشترك بين معنيين، فتريد بذلك اللفظ أحد المعنيين، ثم تُعيد عليه ضميراً تريد به المعنى الآخر. أو تعيد عليه إن شئت ضميرين تريد بأحدهما أحد المعنيين، وبالآخر المعنى

(١) روح المعاني: ٣٠/ ١٦٣، انظر الجملة العربية والمعنى: ١٨٢.

الآخر. وعلى هذه الطريقة مشى أصحاب البديعيات والشيخ صفي الدين الحلي والعميان والشيخ عز الدين وهلم جراً.

الثانية: طريقة الشيخ بدر الدين بن مالك رحمه الله تعالى في المصباح، وهي أن الاستخدام إطلاق لفظ مشترك بين معنيين، ثم يأتي بلفظين يفهم من أحدهما أحد المعنيين، ومن الآخر المعنى الآخر. ثم إن اللفظين قد يكونان متأخرين عن اللفظ المشترك، وقد يكونان متقدمين، وقد يكون اللفظ المشترك متوسطاً بينهما.

والطريقتان راجعتان إلى مقصود واحد، وهو استعمال المعنيين. وهذا هو الفرق بين التورية والاستخدام؛ فإن المراد من التورية هو أحد المعنيين، وفي الاستخدام كل من المعنيين مراد"[1].

فالاستخدام في البلاغة العربية نوع من البديع لطيف، وأداة من أدوات الاتساع في دلالات الخطاب القرآني؛ ذلك لأنه استخدام للفظ في معنيين مختلفين في آن واحد.

وذكروا من أمثلة الاستخدام قول الشاعر[2]:

إذا نزل السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا

أراد بالسماء (الغيث)، وبالضمير الراجع إليه من رعيناه (النبت)، والسماء يطلق عليهما.

---

(١) خزانة الأدب وغاية الأرب: ١/ ١١٩، ابن حجة الحموي، تقي الدين أبو بكر علي بن عبد الله، تح: عصام شعيتو. دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط١، ١٩٨٧.

(٢) البيت مذكور في: معاهد التنصيص على شواهد التلخيص: ٢/ ٢٦٠، العباسي، عبد الرحيم بن أحمد، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد. عالم الكتب، بيروت، ١٩٤٧م. وخزانة الأدب للبغدادي: ٤/ ١٤٥، وخزانة الأدب للحموي: ١/ ١٢٠، ومنسوب لمعَاوِيَةَ بن أبي ملك (مالك) في البحر الرائق شرح كنز الدقائق: ١/ ١١٥، ومنسوب لجرير في المحرر الوجيز: ٥/ ٤٦٤، ولم أجده في ديوانه.

وقول الآخر:

فسقى الغضى والساكنيه وإن هم شبوه بين جوانحي وضلوعي

أراد بأحد الضميرين الراجعين إلى (الغضى) -وهو المجرور في الساكنيه- (المكان)، وبالآخر -وهو منصوب في شبوه- (النار)، أي: أوقدوا بين جوانحي نار الغضى، يعني نار الهوى التي تشبه نار الغضى[1].

وفيما يأتي نماذج من بديع الاستخدام في القرآن الكريم:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾ [النساء: ٤/ ٤٣].

الصلاة في الآية الكريمة تحتمل أن يراد بها معنيان: الأول فعلها. والثاني: مكانها مجازاً. وقوله: ﴿حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ يخدم الأول. و ﴿إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾ يخدم الثاني.

يقول الألوسي: "وقالوا في آية ﴿لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾: إن الصلاة في المعطوف عليه بالمعنى الحقيقي الشرعي، وهو الأركان المخصوصة وفي المعطوف بالمعنى المجازي، وهو المسجد فإنه محل الصلاة"[2].

ففنُّ الاستخدام أكسب الآية المعنى الشرعي والمعنى المجازي معاً بلفظ واحد، فزاد في المعنى من دون أن يزيد في الألفاظ.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ﴿١٢٢﴾

(١) كتاب التعريفات: ٣٣، وانظر: التوقيف على مهمات التعاريف: ١/ ٥٦، والإتقان: ٢/ ٢٢٧-٢٢٨.

(٢) روح المعاني: ٦/ ٧٥.

لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ٤/ ١٢٢-١٢٣].

الوعد في قوله تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾ يحتمل أن يراد به المصدر المتبادر للذهن ابتداء، ويحتمل أن يراد به اسم المفعول مجازاً، أي: الموعود من الثواب، والضمير في ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ﴾ عائد على الوعد بالاحتمالين.

يقول ابن عاشور: "الأظهر أنّ قوله: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ﴾ استئناف ابتدائي للتنويه بفضائل الأعمال، والتشويه بمساويها، وأنّ في ﴿لَّيْسَ﴾ ضميراً عائداً على الجزاء المفهوم من قوله: ﴿يُجْزَ بِهِۦ﴾، أي: ليس الجزاء تابعاً لأماني الناس ومشتهاهم، بل هو أمر مقدّر من الله تعالى تقديراً بحسب الأعمال...، وجعل صاحب (الكشاف) الضمير المستتر عائداً على وعد الله، أي: ليس وعد الله بِأَمَانِيِّكُمْ؛ فتكون الجملة من تكملة الكلام السابق حالاً من ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾"(١).

وقد جمع الألوسي هذين المعنيين معاً من طريق الاستخدام، فقال: "واسم ﴿لَّيْسَ﴾ مستتر فيها عائد على الوعد بالمعنى المصدري. أو بمعنى الموعود فهو استخدام كما قال السعد"(٢).

وطريقة السكاكي كما مر آنفاً تقتضي أن يُراد بـ ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ المعنى المصدري، وبالضمير العائد عليه اسم المفعول، أي: الموعود من الثواب، وهو المعنى المجازي، فيجمع اللفظ المعنيين أحدهما بلفظه، والآخر بضميره.

---

(١) التحرير والتنوير: ٤/ ٢٦٠.
(٢) روح المعاني: ٥/ ١٥٢.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥/ ١٠١-١٠٢].

"من الاستخدام قوله تعالى: ﴿لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ﴾، ثم عود الضمير على ﴿أَشْيَآءَ﴾ في قوله: ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾، أي: سألوا أشياء أخر؛ لأن الأولين لم يسألوا عن الأشياء التي سأل عنها الصحابة فنهوا عن سؤالها.

يقول السيوطي في باب الاستخدام: "ومنه ﴿لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ ثم قال: ﴿قَدْ سَأَلَهَا﴾، أي: أشياء أخر مفهومة من لفظ أشياء السابقة"(١).

فكسب بلفظ ﴿أَشْيَآءَ﴾ معنى، وبالضمير العائد عليها معنى آخر، واللفظ واحد.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٦/ ٩٩].

ورد في الآية الكريمة ذكر (الزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ) وهو ثمر، ثم ذكر ﴿ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ﴾ بعود الضمير عليهما، والتوفيق بين الثمر وثمره يقتضي أن يُراد بالثاني الشجرة وبالأول الثمرة على سبيل الاستخدام.

يقول الألوسي: " ﴿ٱنظُرُوٓاْ﴾ نظر اعتبار واستبصار ﴿إِذَآ أَثْمَرَ﴾ أي ثمر ذلك، أي: الزيتون والرمان، والمراد شجرتهما، وأريد بهما فيما سبق

(١) الإتقان: ١/ ٥٤٩.

الثمرة؛ ففي الكلام استخدام. وعن الفراء أن المراد في الأول شجر الزيتون وشجر الرمان وحينئذ لا استخدام"[(١)].

فنظم الآية الكريمة على ما ذهب إليه الألوسي أدَّى باستخدام اللفظ وضميره معنيي الثمرة والشجرة، فزاد في المعنى من غير أن يزيد في اللفظ.

قال تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾ [الأعراف: ٧/ ٤].

وكذلك التعبير بـ ﴿قَرْيَةٍ﴾ للدلالة على القرية حقيقة، وبالضمير العائد عليها في قوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا﴾؛ إذ المراد بضمير القرية أهلها مجازاً من إطلاق المحلِّ وإرادة الحالِّ، وحُملت الآية على غير ذلك أيضاً.

جاء في روح المعاني: "وقدر غير واحد في النظم الكريم مضافاً، أي: فجاء أهلها. وجوز بعضهم الحمل على الاستخدام؛ لأن القرية تطلق على أهلها مجازاً"[(٢)].

فحصل بالاستخدام مزيد معنى، مع الإيجاز في اللفظ، فأكسب الخطاب القرآني اتساعاً وبياناً.

قال تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد: ١٣/ ١٧].

ورد في الآية الكريمة ذكر ﴿أَوْدِيَةٌۢ﴾ بمعناها الحقيقي -في أحد الأقوال- ثم عاد عليها ضمير ﴿بِقَدَرِهَا﴾ بمعنى مياه الأودية مجازاً من إطلاق المحلِّ على الحال.

---

(١) روح المعاني: ٧/ ٢٤٠.
(٢) نفسه: ٨/ ٧٩.

يقول الألوسي: "إن أريد بها المعنى الحقيقي فالمعنى: سالت مياهها بقدر تلك الأودية،... أو يراد بضميرها مياهها بطريق الاستخدام "(١).

فأفاد الاستخدام معنى الأودية ومعنى المياه التي تجري في تلك الأودية بلفظ واحد من أقرب سبيل وأيسر تعبير.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ١٣/ ٣٨-٣٩].

جمع لفظ (كِتَابٌ) في قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ معنيين، أحدهما حقيقي متبادر للذهن من لفظ الكتابة، والآخر مجازي يفهم من السياق، وهو ما يراد من الكتابة من تحديد وضبط.

يقول ابن عاشور: "والأجل: الوقت الموقت به عمل معزوم أو موعود. والكتاب: المكتوب، وهو كناية عن التحديد والضبط؛ لأن شأن الأشياء التي يراد تحققها أن تكتب لئلا يخالف عليها. وفي هذا الرد تعريض بالوعيد. والمعنى: لكل واقع أجلٌ يقع عنده، ولكل أجل كتاب، أي: تعيين وتحديد لا يتقدمه ولا يتأخر عنه "(٢).

ودلالة ﴿كِتَابٌ﴾ على المكتوب وعلى التعيين والتحديد هو من قبيل الاستخدام بالاستفادة من لفظي ﴿أَجَلٍ﴾ و ﴿يَمْحُو﴾ على طريقة بدر الدين بن جماعة.

يقول السيوطي في تعريف الاستخدام: "أن يؤتى بلفظ مشترك، ثم بلفظين يفهم من أحدهما أحد المعنيين، ومن الآخر الآخر، وهذه طريقة

(١) نفسه: ١٣/ ١٣٠، وانظر: إرشاد العقل السليم: ٥/ ١٤.
(٢) التحرير والتنوير: ١٢/ ٢٠٣.

بدر الدين بن جماعة في المصباح، ومشى عليها ابن أبي الإصبع. ومثل له بقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ الآية؛ فلفظ ﴿كِتَابٌ﴾ يحتمل الأمد المحتوم والكتاب المكتوب، فلفظ ﴿أَجَلٍ﴾ يخدم المعنى الأول، و ﴿يَمْحُواْ﴾ يخدم الثاني"[1].

فالاستخدام في هذه الآية أكسب الكلمة معنيين مرادين في وقت واحد من أيسر السبل.

قال تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ١٦/ ١].

في تأويل ﴿أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أقوال، فقد جاء في البحر المحيط: " ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ وهو يوم القيامة على قول الجمهور. وعن ابن عباس: المراد بالأمر نصر رسول الله ﷺ وظهوره على الكفار. وقال الزمخشري: كانوا يستعجلون ما وعدوا من قيام الساعة، أو نزول العذاب بهم يوم بدر استهزاء وتكذيباً بالوعد. انتهى. وهذا الثاني قاله ابن جريج، قال: الأمر هنا ما وعد الله نبيه من النصر وظفره بأعدائه"[2]، وعن ابن عباس ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ قال: خروج محمد ﷺ[3]، وقيل غير ذلك.

ومما جاء في تفسير الآية أن ﴿أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ يُراد به مبعث النبي ﷺ، وفي الضمير بعده العذاب وقيام الساعة، من قبيل الاستخدام، كأنه قال: أتاكم النذير فلا تستعجلوا الساعة والعذاب.

يقول السيوطي: "قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾؛ "فأمر الله يراد به قيام الساعة، والعذاب، وبعثة النبي. وقد أريد بلفظه الأخير، كما أخرج ابن

---

(١) الإتقان: ٢/ ٢٢٨.
(٢) البحر المحيط: ٥/ ٤٥٨.
(٣) فتح القدير: ٣/ ١٥٠.

مردويه من طريق الضحاك عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ قال: محمد. وأعيد الضمير عليه في ﴿تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ مراداً به قيام الساعة والعذاب"[1].

فبهذا التأويل يكون اللفظ اتسع بـ (الاستخدام البديعي) لمعنيين في وقت واحد.

قال تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ٧٨ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ [الإسراء: ١٧/ ٧٨-٧٩].

وكذلك ثمة استخدام في قوله تعالى: ﴿وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ٧٨ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ﴾؛ إذ يُراد بالقرآن أولاً صلاة الفجر مجازاً من تسمية الكل باسم الجزء، ثم يراد بالضمير العائد عليه معناه الحقيقي، كأنه قال: إن صلاة الفجر كانت مشهودة، ومن الليل فتهجد بالقرآن نافلة لك.

يقول الألوسي: "والمراد بـ ﴿قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ﴾ صلاته، كما روي عن ابن عباس ومجاهد، وسميت قرآناً، أي: قراءة؛ لأنها ركنها، كما سميت ركوعاً وسجوداً،... وفيه أن الدليل قائم وهو ﴿أَقِمِ﴾ لاشتهار أقم الصلاة دون أقم القراءة. وضمير (بِهِ) فيما بعد يجوز أن يرجع إلى القرآن بمعناه الحقيقي استخداماً، وهو أكثر من أن يحصى"[2].

فأفاد الاستخدام اتساعاً في دلالة الآية؛ إذ دلَّت على القرآن حقيقةً وعلى الصلاة مجازاً بلفظ واحد.

---

(١) الإتقان: ٢/ ٢٢٨.

(٢) روح المعاني: ١٥/ ١٣٥.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٧/ ١٠١].

بنو إسرائيل في هذه الآية الكريمة تدلّ على من عاصروا موسى (عليه السلام)، وعلى أحفادهم الذين عاصروا النبي ﷺ بالضمير العائد عليهم استخداماً.

جاء في روح المعاني: "والمعنى -على سائر احتمالات كون الخطاب لنبينا ﷺ- إذ جاء آباءهم، إذ بنو إسرائيل حينئذ الموجودون في زمانه، وموسى (عليه السلام) ما جاءهم؛ فالكلام إما على حذف مضاف، أو على ارتكاب نوع من الاستخدام"[(١)].

فدلالة الضمير تختلف عن دلالة عائده؛ مما أكسب الخطاب اتساعاً في المعنى، وإيجازاً في اللفظ.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١٨/ ١٩].

في ذكر المدينة والضمير (ها) في قوله تعالى: ﴿فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ ثلاثة أقوال عند الألوسي، أحدها ما نحن فيه من الاستخدام؛ إذ المراد بـ ﴿ٱلْمَدِينَةِ﴾ المدينةُ نفسها، وبالضمير العائد عليها أهلُها مجازاً من قبيل ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ١٢/ ٨٢]، من إطلاق المحلّ والمراد الحالّ، فيكون استخداماً للفظ في معنيين مختلفين، كأنه قال: فابعثوا أحدكم إلى المدينة فلينظر أي أهلها أزكى طعاماً.

---

(١) نفسه: ١٥/ ١٨٤.

جاء في روح المعاني: "وضمير ﴿أَيُّهَآ﴾ إما للمدينة، والكلام على تقدير مضاف، أي: (أي أهلها). وإما للمدينة مراداً بها أهلها مجازاً، وفي الكلام استخدام، ولا حذف. وإما لما يفهم من سياق الكلام، كأنه قيل: فلينظر أي الأطعمة أو المأكل أزكى طعاماً فليأتكم برزق منه"[1].

فالقول بالاستخدام أحد الآراء الوجيهة في تفسير الآية الكريمة؛ إذ يجعل اللفظ دالاً على معنيين في وقت واحد، أحدهما حقيقي، والآخر مجازي، وفي ذلك اتساع في الدلالة وإيجاز في العبارة.

قال تعالى: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ [الكهف: ١٨/ ٤٠].

(الجنة) في هذه الآية بمعنى البستان، وقد ورد ذكر هذه الجنة في سياق حوار بين رجلين يتعالى أحدهما على الآخر بما عنده من مال وولد في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف: ١٨/ ٣٤]، فكان من ردِّ صاحبه أن قال: ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ [الكهف: ١٨/ ٣٩-٤٠]؛ فلفظ الجنة يدلُّ على البستان، والسياق يتحدث عن نعمة المال والولد. والصلة بين المال والبستان غير خافية، أما بين الولد والبستان فقد التمسها بعض المفسرين في أنهما من متع الحياة الدنيا، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ١٨/ ٤٦]؛ إذ تدلُّ الجنة على ما يُمتَّع به المرء من زينة الحياة الدنيا من مال وبنين؛ فالجنة في سياق الآية ﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾ تدلّ على ترجي نعمة المال والولد، أما الضمير في قوله: ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا﴾ فيعود على الجنة بمعنى

(١) نفسه: ١٥/ ٢٣١.

البستان لا غير، فيكون لفظ (الجنة) استخدم بمعنيين، أولهما متعة المال والولد، والثاني البستان.

يقول الألوسي: "وقيل: يمكن أن يكون ترجي الولد في قوله: ﴿خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾ بناءً على أنه أراد من جنته جميع ما متع به من الدنيا، وتكون الضمائر بعدها عائدة عليها بمعنى البستان على سبيل الاستخدام"[١].

ففي هذا القول توسيع لدلالة اللفظ في الآية، فبدلاً من أن يقول: فعسى ربي أن يؤتيني مالاً أكثر من مالك ونفراً أعز من نفرك، ويرسل على جنتك حسباناً من السماء، قال: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ فأبان وأوجز.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ١٢-١٣].

في التعبير بـ (الإِنسَان) وضميره في (جَعَلْنَاهُ) استخدام واضح؛ إذ المراد بـ (الإِنسَان) آدم (عليه السلام)، وغني عن البيان أن من جُعل نطفة ليس آدم (عليه السلام)، وإنما ولده، فيكون استخدام اللفظ في معنى، وضميره في معنى آخر.

يقول السيوطي في الاستخدام على طريقة السكاكي: "ومنها، وهي أظهرها، قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾؛ فإن المراد به آدم، ثم أعاد عليه الضمير مراداً به ولده، فقال: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾"[٢].

---

(١) نفسه: ١٥/ ٢٨٢.

(٢) الإتقان: ٢/ ٢٢٨.

ولولا الاستخدام لقال: وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ من طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَا ولدهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ، ولكنه اتسع باللفظ لمعنيين مختلفين في وقت معاً، واستعاض عن لفظين بواحد استخداماً وإيجازاً.

قال تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النور: ٢٤/ ١].

جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا﴾ أقوال كان الاستخدام أحدها؛ إذ إنزال السورة معروف، أما الفرض فيكون لما فيها من أحكام، وإطلاق السورة على أحكامها تعبير مجازي، من إطلاق الكل على الجزء؛ فيكون الضمير في ﴿أَنزَلْنَاهَا﴾ يدل على السورة، وفي ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾ يدل على أحكامها من قبيل الاستخدام.

يقول الألوسي: "وقوله تعالى: ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾ إما على تقدير مضاف، أي: فرضنا أحكامها، وإما على اعتبار المجاز في الإسناد، حيث أسند ما للمدلول للدال؛ لملابسة بينهما تشبه الظرفية. ويحتمل -على بعد- أن يكون في الكلام استخدام، بأن يراد بـ ﴿سُورَةٌ﴾ معناها الحقيقي وبضميرها معناها المجازي، أعني الأحكام المدلول عليها بها"[1].

ففي هذا الاحتمال، وإن كان بعيداً، اتساع في المعنى وإيجاز في اللفظ، ولولا الاستخدام لقال: سورة أنزلناها وفرضنا أحكامها.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ [الحديد: ٥٧/ ٢٧].

(١) روح المعاني: ١٨/ ٧٥.

في قوله تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾ عند المفسرين أقوال، أحدها حمل الرهبانية وضميرها على الاستخدام؛ إذ المراد بها المبالغة في التعبد مع مخافة وتحرُّز، والمراد بضميرها الأعمال التعبدية الشاقة، كرفض الدنيا وشهواتها، أي: ابتدعوا أعمالها الشاقة وكلفوا أنفسهم ما لا طاقة لهم به.

فقد ذهب الألوسي لتجويز عطف (رَهْبَانِيَّةً)، وهي من أعمال العباد، على جعل الرحمة والرأفة في القلوب، وهي من شأن الله عزَّ وجلَّ، ذهب إلى: "ارتكاب استخدام في الكلام بأن يعتبر للرهبانية معنيان: الخوف المفرط مثلاً، ويُراد في (جعلنا في قلوبهم رهبانية). والأعمال التعبدية الشاقة، كرفض الدنيا وشهواتها من النساء وغيرهن، ويُراد في ﴿ٱبْتَدَعُوهَا﴾ وما بعده"[(١)].

على أن في الآية أقوالاً أخرى ليس هذا محلَّ ذكرها، والذي يعنينا ما أشار إليه الألوسي من (الاستخدام)، الذي يوسع دلالة الآية؛ لتشمل التعبُّد والأعمال الشَّاقة بلفظ واحد، فيزيد في المعنى من دون أن يزيد في اللفظ.

رابعاً - التقديم والتأخير:

كان تقديم لفظ على آخر في نظم الخطاب القرآني ذا أثر بالغ في توسيع دلالة التركيب ليشمل معنيين في وقت واحد، فيزيد في المعاني من دون أن يزيد في المباني، وما هو إلا تقديم أو تأخير، وفيما يأتي نماذج تدلّ على هذا التفنن في أداء المعاني وتكثيرها بتقديم بعض الألفاظ وتأخير بعضها:

---

(١) نفسه: ٢٧/ ١٩١.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة: ٢/ ٢٦].

في تقديم المثل على البعوضة في الآية الكريمة اتساع في المعنى لا يتأتى في التأخير؛ ذلك أن في تقديم البعوضة تقييد للمثل، بخلاف ما في التأخير من الإطلاق والتعميم؛ فقد أفاد سياق الآية الكريمة أن الله لا يستحيي من ضرب الأمثال عموماً، قال تعالى: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٢٥]، ثم بيَّن الله تعالى أنَّه لا يستحيي من ضرب المثل بالبعوضة خاصة، فخصَّص بعد التعميم، ولو قدَّم البعوضة لما أفاد غير المعنى الخاصّ.

يقول د. فاضل: "فهو بيان أن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما أياً كان ذلك المثل على وجه العموم، ولو قال (إن الله لا يستحيي أن يضرب بعوضة فما فوقها مثلاً) لتخصَّص ذلك بالبعوضة فما فوقها، ولم يتسع اتساع التعبير الأول، فاتسع بالتقديم ما لا يتسع بالتأخير"(١).

قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا۟ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٨٣].

في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ تعميم الإثم بتقديمه، وتخصيص الإثم بالقلب بتأخير ذكره، وبيان ذلك أنه لو قال (ومن يكتمها فإن قلبه آثم) لما أفاد غير إثم القلب، ولكنه بتقديم الإثم أفاد إثم جميع الجوارح، ثم خصَّ القلب بالإثم؛ لأنه موضع كتمان الشهادة، فعبَّر عن إثم الجوارح وإثم القلب معاً بالتقديم والتأخير.

(١) الجملة العربية والمعنى: ١٨٨.

جاء في الكشاف: "فإن قلت: هلا اقتصر على قوله ﴿فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ﴾؟ وما فائدة ذكر القلب والجملة هي الآثمة لا القلب وحده؟

قلت: كتمان الشهادة هو أن يضمرها ولا يتكلم بها، فلما كان إثماً مقترفاً بالقلب أسند إليه؛ لأنّ إسناد الفعل إلى الجارحة التي يعمل بها أبلغ. ألا تراك تقول إذا أردت التوكيد: هذا مما أبصرته عيني، ومما سمعته أذني، ومما عرفه قلبي، ولأنّ القلب هو رئيس الأعضاء والمضغة التي إن صلحت صلح الجسد كله، وإن فسدت فسد الجسد كله، فكأنه قيل: فقد تمكن الإثم في أصل نفسه، وملك أشرف مكان فيه. ولئلا يظن أن كتمان الشهادة من الآثام المتعلقة باللسان فقط"(١).

ويقول العكبري: " ﴿ءَاثِمٌ﴾ فيه أوجه؛ أحدها: أنه خبر إن، و ﴿قَلْبُهُۥ﴾ مرفوع به. والثاني: كذلك، إلا أن ﴿قَلْبُهُۥ﴾ بدل من ﴿ءَاثِمٌ﴾، لا على نيَّة طرح الأول"(٢).

ففي إعرابه ﴿قَلْبُهُۥ﴾ بدل من ﴿ءَاثِمٌ﴾ لا على نيَّة طرح الأول إشارة إلى أن المراد إثم عموم الجسد، ثم تخصيص القلب بعد ذلك، فاتسع بتقديم ﴿ءَاثِمٌ﴾ للمعنيين العام والخاص، فزاد في المعنى من دون أن يزيد في اللفظ، وما هو إلا تقديم وتأخير.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٠٠].

من الجائز لغة أن يقدَّم لفظ الجن على الشركاء فيقال: وجعلوا لله الجن شركاء، ولكن بين نظم الآية وهذا التقدير بون شاسع في البلاغة والدلالة، ذلك أن لتقديم الشركاء على الجن فائدة شريفة، ومعنى جليلاً

(١) الكشاف: ١/ ٣٥٧.
(٢) التبيان في إعراب القرآن: ١/ ١٢١.

لا سبيل إليه مع التأخير؛ وبيان ذلك أن قولنا (وجعلوا لله الجن شركاء) يقصر المعنى على عبادتهم الجن مع الله تعالى، أما نظم الآية الكريمة بتقديم الشركاء فإنه يفيد نفي الشركاء عموماً والجنَّ خصوصاً.

يقول الجرجاني: "بيانه أنَّا وإن كنَّا نرى جملة المعنى، ومحصوله أنهم جعلوا الجن شركاء وعبدوهم مع الله تعالى، وكان هذا المعنى يحصل مع التأخير حصوله مع التقديم، فإن تقديم الشركاء يفيد هذا المعنى، ويفيد معه معنى آخر، وهو أنه ما كان ينبغي أن يكون لله شريك لا من الجن ولا غير الجن، وإذا أخر فقيل: جعلوا الجن شركاء لله لم يفد ذلك، ولم يكن في شيء أكثر من الإخبار عنهم بأنهم عبدوا الجن مع الله تعالى، فأما إنكار أن يعبد مع الله غيره وأن يكون له شريك من الجن وغير الجن فلا يكون في اللفظ مع تأخير الشركاء دليل عليه"[(١)].

ولولا التقديم والتأخير لاحتاج المعنى إلى استئناف عبارة، نحو أن يقال: وجعلوا الجن شركاء لله، وما ينبغي أن يكون لله شريك من الجن ولا من غيرهم، ولكن حصل بالتقديم والتأخير زيادة معنى واللفظ واحد.

قال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [هود: ١١/ ٣].

إن تأخير ﴿فَضْلَهُۥ﴾ عن ﴿كُلَّ ذِى فَضْلٍ﴾ مكَّن الآية من تأدية معنيين في وقت واحد، وذلك باختلاف عائد الضمير؛ فإن قولنا (ويؤت فضله كل ذي فضل) يفيد معنى واحداً يحدده عود الضمير على الرب في قوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ﴾.

(١) دلائل الإعجاز: ٢٢١.

أما عائد الضمير في نظم الآية الكريمة ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ ففيه قولان؛ الأول: أن يعود على ﴿ذِى فَضْلٍ﴾، أي: ثواب فضله. والمعنى: يُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ وإحسان ثواب فضله وإحسانه. والثاني: يحتمل أن يعود على الله عزَّ وجلَّ، أي: يؤتي الله فضله كلَّ ذي فضل وعمل صالح من المؤمنين.

يقول ابن الجوزي مفصِّلاً هذين الاحتمالين: "في هاء الكناية قولان؛ أحدهما: أنها ترجع إلى الله تعالى. ثم في معنى الكلام قولان؛ أحدهما: ويؤت كلَّ ذي فضل من حسنةٍ وخيرٍ فضله، وهو الجنة. والثاني: يؤتيه فضله من الهداية إلى العمل الصالح.

والثاني: أنها ترجع إلى العبد، فيكون المعنى: ويؤت كلَّ من زاد في إحسانه وطاعاته ثواب ذلك الفضل الذي زاده، فيفضِّله في الدنيا بالمنزلة الرفيعة، وفي الآخرة بالثواب الجزيل"[1].

فزاد بتأخير ﴿فَضْلَهُۥ﴾ معنى لم يكن ليحصل بتقديمها، بل لاحتاج إلى عبارتين لتأدية المعنيين، كأن يقول: ويؤت ربكم فضله كل ذي فضل، ويؤت كل ذي عمل صالح وفضل ثواب عمله وفضله. وأين هذا التعبير من ذاك النظم؟

قال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [القصص: ٢٨/ ٢٠].

تقدَّم الجار والمجرور في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ﴾ [يس: ٣٦/ ٢٠]، وفي تقدمهما دلالة قطعية على مكان المجيء، وذلك بتعليقهما بالفعل (جَاءَ)، وتأخرا في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾ [القصص: ٢٨/ ٢٠]، وفي تأخرهما معنيان محتملان:

(١) زاد المسير: ٤/ ٧٥-٧٦.

أحدهما: بتعليق الجار والمجرور بالفعل كما مرَّ، أي إنه جاء من أقصى المدينة.

والآخر: بتعليقهما بصفة الرجل، أي: جاء رجل كائن من أقصى المدينة، بمعنى أنه هو من سكان أقصى المدينة.

يقول الألوسي: "والظاهر أن ﴿مِّنْ أَقْصَا﴾ صلة (جَاء) وجملة ﴿يَسْعَىٰ﴾ صفة ﴿رَجُلٌ﴾، وجوز أن يكون ﴿مِّنْ أَقْصَا﴾ في موضع الصفة لرجل"[1].

فاتسع تقديم ﴿رَجُلٌ﴾ لمعنيين لم يتسع لهما التأخير.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٤٠/ ٣٥].

قد يتساءل قارئ هذه الآية الكريمة، لمَ قال: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾؟، والمتبادر للأذهان أن تكون العبارة (على قلب كل متكبر).

والحق أن في تقديم ﴿كُلِّ﴾ على ﴿قَلْبِ﴾ مزيد معنى، وبيان ذلك أن الله يطبع على قلب المتكبرين عموماً، وهو المعنى المراد والمتبادر للذهن ابتداء، غير أن في النظم الكريم دلالة أعمق غوراً من تلك؛ إذ إنه يشمل أيضاً جميع القلب لا بعضه، فكأنه قال (كذلك يطبع الله على كل قلب كل متكبر جبار).

يقول ابن هشام: "كلّ اسم موضوع لاستغراق أفراد المُنكّر، نحو: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٣٥]، والمعرّف المجموع، نحو: ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ١٩/ ٩٥]، وأجزاء المفرد

(١) روح المعاني: ١٥/ ٢٧٣.

المعرف، نحو: كُلُّ زيدٍ حسن. فإذا قلت: أكلتُ كلَّ رغيفٍ لزيدٍ كانت لعموم الأفراد، فإن أضفتَ الرغيف إلى زيد صارت لعموم أجزاء فردٍ واحد.

ومن هنا وجب -في قراءة غير أبي عمرو وابن ذكوان ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ بترك تنوين قلب- تقديرُ كل بعد قلب ليعمّ أفراد القلوب كما عمّ أجزاء القلب"(١).

ويقول الألوسي: "والظاهر أن عموم كل منسحب على المتكبر والجبار أيضاً، فكأنه اعتبر أولاً إضافة قلب إلى ما بعده ثم اعتبرت إضافته إلى المجموع"(٢).

ويقول الشوكاني: "وفي الكلام حذف، وتقديره: كذلك يطبع الله على كلّ قلب كل متكبر، فحذف كلّ الثانية لدلالة الأولى عليها"(٣).

فقد أفاد تقديم ﴿كُلِّ﴾ على ﴿قَلْبِ﴾ معنيين، بخلاف تأخيرها الذي يفيد استغراق المتكبرين، ولا يفيد استغراق القلب كله.

قال تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ﴾ [الأعلى: ٨٧/ ١-٥].

الأحْوَى (أفعل) من الحُوَّة، وهي سوادٌ يضرب إلى الخُضْرَة، يقول ابن منظور: "الحُوَّةُ: سواد إلى الخُضْرة وقيل: حُمْرةٌ تَضْرب إلى السَّواد... ابن سيده: شَفَة حَوَّاءُ حَمْراء تَضْرِب إلى السواد، وكثر في كلامهم حتى سَمَّوْا كل أَسود أَحْوَى"(٤).

---

(١) مغني اللبيب: ٢٥٦.
(٢) روح المعاني: ٢٤/ ٦٩.
(٣) فتح القدير: ٤/ ٤٩٢.
(٤) لسان العرب: (حوا).

ويقول الراغب: " ﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ﴾ أي: شديد السواد... وقيل: تقديره والذي أخرج المرعى أحوى فجعله غثاء. والحُوَّة: شدة الخضرة "(١).

وفي إعراب ﴿أَحْوَىٰ﴾ وجهان بحسب تقدير معناها؛ الأول: أن تكون نعتاً لـ ﴿غُثَآءً﴾، ودلالة (الأحوى) هنا الأسود من اليبس والجفاف. والثاني: أن تكون حالاً من المرعى، فيكون (الأحوى) شديد الخضرة التي تضرب إلى السواد.

جاء في الإتقان: "وقوله: ﴿غُثَآءً أَحْوَىٰ﴾ إن أريد به الأسود من الجفاف واليبس فهو صفة لـ ﴿غُثَآءً﴾، أو من شدة الخضرة فحال من (الْمَرْعَى)"(٢).

وبالاحتمالين قال المفسرون، جاء في البحر المحيط: "والظاهر أن ﴿أَحْوَىٰ﴾ صفة لـ ﴿غُثَآءً﴾، قال ابن عباس: المعنى: ﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝٥﴾ أي أسود؛ لأن الغثاء إذا قدم وأصابته الأمطار اسودَّ وتعفن فصار أحوى. وقيل: ﴿أَحْوَىٰ﴾ حال من المرعى، أي: أخرج المرعى أحوى، أي: للسواد من شدّة خضرته ونضارته لكثرة ريه، وحسن تأخير ﴿أَحْوَىٰ﴾ لأجل الفواصل"(٣).

وخلاصة الأمر أن (الأحوى) تدلُّ على اختلاط السواد بالخضرة، فإن كانت حالاً من المرعى كان المعنى: أخرج المرعى طريّاً غضّاً شديد الخضرة فجعله غثاء. وإن كانت صفة لـ ﴿غُثَآءً﴾ كان المعنى: أخرج المرعى، ثم لما يبس صار غثاء أسود من جفافه واحتراقه.

---

(١) المفردات: (حوا).
(٢) الإتقان: ١/ ٥٢٩.
(٣) البحر المحيط: ٨/ ٤٥٣.

والحق أن المعنيين مرادان معاً، والجمع بينهما غير عسير؛ فالله سبحانه خلق المرعى غضّاً طريّاً شديد الخضرة، ثم جعله هشيماً أسود من الجفاف واليبس، فاختزل المعنيين بكلمة واحدة، فتحاشا التكرار، وأوجز، وراعى الفاصلة.

والذي أفاد هذين المعنيين المحتملين، بل المرادين، هو تأخير ﴿أَحْوَىٰ﴾ مما جعلها صالحة للمعنيين، ولو قدَّمها فقال: وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى أَحْوَى فَجَعَلَهُ غُثَاء، لما أفاد غير المعنى الأول، مع ما فيه من خلل في موسيقى الفاصلة القرآنية.

خامساً - الإخبار بالعام عن الخاص:

من الوسائل التي اعتمدها الخطاب القرآني في توسيع دلالات التركيب أن يخالف بين صدر الكلام وعجزه، فقد يكون المبتدأ أو الشرط خاصّاً فيعقبه بالخبر أو الجزاء عامّاً شاملاً فيدخل فيه صدر الكلام دخولاً أوليّاً، فيكسب المعنيين معاً الخاص أولاً والعام ثانيّاً، وفيما يأتي نستعرض نماذج لهذا الفن في التعبير القرآني.

قال تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢/ ٩٨].

آثر النظم الكريم في ختام هذه الآية تعميم الحكم، والأصل أن يكون الضمير رابطاً بين الشرط وجوابه بأن يقول: فإن الله عدو له، وفي التعميم توسيع لدلالة العبارة؛ إذ يفيد شيئين:

أولهما: وصف من يعادي الله وملائكته ورسله بالكفر من خلال التنبيه على أن عداوتهم هذه علة لتكفيرهم، ولو قال: (فإن الله عدو له) لم يفد هذا المعنى؛ لأن الضمير لا يدلُّ على الوصف المذكور. يقول ابن

الجوزي: "قال ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ ولم يقل: لهم، ليدل على أنهم كافرون بهذه العداوة"(١).

والثاني: تقرير عداوة الله للكافرين عموماً، ولمن يعادي الله وملائكته ورسله خصوصاً؛ لاندراجهم تحت عموم الكافرين.

جاء في اللباب: "الجواب هنا يجوز أن يكون ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾، فإن قيل: وأين الرَّابط؟ فالجواب من وجهين؛ أحدهما: أن الاسم الظاهر قام مقام المضمر، وكان الأصل: فإن الله عَدُوّ لهم، فأتى بالظَّاهر تنبيهاً على العلة. والثاني: أن يراد بالكافرين العموم، والعموم من الرَّوَابط، لاندراج الأول تحته"(٢).

وبهذا نرى أن الخطاب في الآية الكريمة اتسع لمعنيين بتعميم الجواب، فبين أن الله عدو لجميع الكافرين، ثم أشار إلى معاداة الله لهذا الصنف من البشر على وجه التخصيص؛ لاندراجهم في الكافرين نتيجة عداوتهم لله وملائكته ورسله، فأفاد هذين المعنيين بلفظ واحد.

قال تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ٤/ ١٧٢].

في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ جواب بالعموم عن الخصوص، إذ الحشر غير مقصور على من يستنكف، والمتبادر للذهن في غير القرآن أن يقال: (ومن يستنكف فسيحشره إليه)؛ للمطابقة بين الشرط وجوابه، ولكن العبارة القرآنية اتسعت لمعنيين في وقت واحد: التخصيص أولاً باعتبار المخصوص

(١) زاد المسير: ١/ ١١٩.
(٢) اللباب في علوم الكتاب: ٢/ ٣١٤-٣١٥.

بالشرط، والتعميم ثانياً؛ لأن الحشر غير مقصور عليه، كل ذلك بلفظ واحد، فبدل أن يقول: (ومن يستنكف فسيحشره إليه، وسيحشر الناس إليه جميعاً)، أفاد المعنيين كليهما بالإخبار عن المفرد بالجمع في قوله تعالى: ﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾.

يقول أبو حيان: " ﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾... يحتمل أن يكون الضمير عامّاً عائداً على الخلق لدلالة المعنى عليه، لأن الحشر ليس مختصاً بالمستنكف، ولأنّ التفصيل بعده يدل عليه. ويكون ربط الجملة الواقعة جواباً لاسم الشرط بالعموم الذي فيها.

ويحتمل أن يعود الضمير على معنى (مَن)، ويكون قد حذف معطوف عليه لمقابلته إياه، التقدير: فسيحشرهم ومن لم يستنكف إليه جميعاً، كقوله: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾، أي: والبرد"[1].

فقد أفاد الإخبار بالعام عن الخاص احتمال حذف المعطوف إلى جانب عموم الضمير في عوده على الخلق، وبأيٍّ أخذنا يكون النظم الكريم عبَّر عن الخصوص بالشرط، وعن العموم في جوابه؛ فكسب الاثنين معاً بعبارة واحدة.

قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ٥/ ٨٣-٨٥].

خُتمت الآية بقوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ والإشارة إلى ثواب الله ﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ﴾، والمتبادر للذهن في غير القرآن أن

(١) البحر المحيط: ٣/ ٤٢٠.

يقال: وذلك جزاؤهم، أو جزاء من يقول هذا القول، ولكن أين هذا التعبير من البيان القرآني ومعانيه؛ إذ إنه يضيف إلى هذا المعنى معنى آخر بلفظ محكَم وجيز، وهو أنهم من المحسنين، فأفاد أن ذلك جزاء كل محسن، وهذا معنى عام، ينطبق عليهم وعلى غيرهم، ثم أفاد أنه جزاؤهم، وهذا معنى خاص؛ لِمَا أشارت إليه الآية من الصلة بين قولهم والإحسان.

يقول أبو حيان: " ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فإما أن يكون من وضع الظاهر موضع المضمر تنبيهاً على هذا الوصف بهم، وأنهم أثيبوا لقيام هذا الوصف بهم، وهو رتبة الإحسان، وهي التي فسرها رسول الله ﷺ بقوله: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» ولا إخلاص ولا علم أرفع من هذه الرتبة، وإما أن يكون أريد به العموم فيكونون قد اندرجوا في المحسنين على أن هذه الإثابة لم تترتب على مجرد القول اللفظي؛ ولذلك فسره الزمخشري بقوله بما قالوا بما تكلموا به من اعتقاد وإخلاص من قولك: هذا قول فلان أي اعتقاده وما يذهب إليه. انتهى "(١).

وجاء في روح المعاني: " ﴿جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، أي: جزاؤهم، وأقيم الظاهر مقام ضميرهم مدحاً لهم وتشريفاً بهذا الوصف الكريم. ويحتمل أن يراد الجنس ويندرجون فيه اندراجاً أوليّاً، أي: جزاء الذين اعتادوا الإحسان في الأمور "(٢).

فبذكر ﴿جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ اتسعت الآية الكريمة للمحسنين عموماً، وللقائلين ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ خصوصاً، باعتباره باباً من أبواب الإحسان، كل ذلك بلفظ واحد.

---

(١) نفسه: ٤/ ٩.

(٢) روح المعاني: ٧/ ٦.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٧٠].

عدل الخطاب القرآني في الآية الكريمة عن ذكر الضمير، وهو الأصل، فلم يقل: (إنا لا نضيع أجرهم)، وآثر عموم المصلحين على خصوص ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ﴾، وفي ذلك فائدتان:

إحداهما: أن هذا الصنف هم من المصلحين، ولم يقل أجرهم تنبيهاً على أن صلاحهم علة لنجاتهم.

والأخرى: أن الأجر لا يختص بهذا الصنف من الناس، وإنما يشمل كل المصلحين فدخل فيه هؤلاء وغيرهم من المصلحين.

قال ابن القيم في هذه الآية إنه: "لم يقل أجرهم تعليقاً لهذا الحكم بالوصف، وهو كونهم مصلحين، وليس في الضمير ما يدل على الوصف المذكور"(١).

وقال ابن عاشور: "وجملة: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ خبر عن ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ﴾، والمصلحون هم، والتقدير: إنّا لا نضيع أجرهم لأنهم مصلحون؛ فطوي ذكرهم اكتفاء بشمول الوصف لهم وثناء عليهم على طريقة الإيجاز البديع"(٢).

فالإخبار بالعام عن الخاص في هذه الآية وسع دلالة العبارة لتشمل جميع المصلحين أولاً، و ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ﴾ ثانياً، وذلك بوصفهم بالصلاح ضمناً، فأفاد معنيين بعبارة واحدة وفي الوقت ذاته.

---

(١) بدائع الفوائد: ٢/ ٢٨٣.

(٢) التحرير والتنوير: ٨/ ٣٤٣.

قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٩/ ٩١].

في قوله تعالى: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ﴾ عدول عن الضمير المعبِّر عن فئة خاصة إلى العموم الشامل لجنس المحسنين، وكان الأصل أن يقول: ما عليهم من سبيل، فأفاد بهذا العدول معنيين:

أحدهما: التنبيه على وصف الناصحين بالإحسان، وجعل النصح علة لهذا الوصف الجليل.

والآخر: نفي الحرج عن عموم المحسنين، والناصحون لله ورسوله يدخلون في عموم المحسنين.

يقول الألوسي: " ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ﴾، أي: ما عليهم سبيل؛ فالإحسان النصح لله تعالى ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم. ووضع الظاهر موضع ضميرهم اعتناء بشأنهم ووصفاً لهم بهذا العنوان الجليل، وزيدت ﴿مِن﴾ للتأكيد،... ويحتمل أن يكون تعليلاً لنفي الحرج عنهم، و ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ على عمومه، أي: ليس عليهم حرج؛ لأنه ما على جنس المحسنين سبيل وهم من جملتهم"[(١)].

فاتسعت الآية برابط العموم ما لا تتسع له بالضمير المخصِّص، فجمعتهما معاً على أبلغ وجه وألطف سبك.

قال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩/ ٩٦].

كذلك في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾، بدلاً

(١) روح المعاني: ١٠/ ١٥٨.

من أن يقال: فإن الله لا يرضى عنهم؛ فقد جمع النظم الكريم بالعموم معنيين:

الأول: وصف هؤلاء الحالفين بالفسق، وجعل حلفهم علة لهذا الحكم.

والآخر: تعميم الحكم بأن الله لا يرضى عن جميع الفاسقين، وهؤلاء الحالفون يدخلون في جملتهم.

يقول أبو السعود: "ووضعُ ﴿ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ موضعَ ضميرِهم للتسجيل عليهم بالخروج عن الطاعة المستوجبِ لما حلَّ بهم من السُخط، وللإيذان بشمول الحُكمِ لمن شاركهم في ذلك، والمرادُ به نهيُ المخاطبين عن الرضا عنهم والاغترارِ بمعاذيرهم الكاذبةِ على أبلغ وجهٍ وآكدِه؛ فإن الرضا عمن لا يرضى عنه الله تعالى مما لا يكاد يصدرُ عن المؤمن"[(١)].

فالعدول عن الضمير إلى عموم الفاسقين وسَّع دلالة الآية لهذين المعنيين بأوجز عبارة وأبلغ بيان.

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة: ٩/ ١٢٠].

وأيضاً في هذه الآية تعميم للحكم بأن الله لا يضيع أجر المحسنين، ولم يقل (أجرهم)؛ ليصف المذكورين في الآية الكريمة بالإحسان ويجعل أعمالهم علة لهذا الوصف، ثم ليشمل هذا الحكم جميع المحسنين ممن

(١) إرشاد العقل السليم: ٤/ ٩٤-٩٥.

يقوم بهذه الأعمال، ومن يأتون الإحسان من أبواب أخرى كباب النصح لله ورسوله المذكور آنفاً.

يقول أبو السعود: "والمرادُ بالمحسنين؛ إما المبحوثُ عنهم، ووضعُ المظهرِ موضِعَ المضمرِ لمدحهم والشهادةِ عليهم بالانتظام في سلك المحسنين وأن أعمالَهم من قبيل الإحسانِ وللإشعار بعلية المأخَذ للحكم، وإما جنسُ المحسنين وهم داخلون فيه دخولاً أولياً"(١).

فأفاد النظم الكريم عموم المحسنين، وبيَّن أن الجهاد في سبيل الله من أبواب الإحسان، فاتسع للمعنيين كليهما بأبلغ عبارة وأوجزها.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ١٠/ ٨١].

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ تعميم للحكم، وفيه معنيان كذلك: وصف السحر بالإفساد ضمناً وجعله علة للحكم، ثم بيان أن الله لا يصلح عمل جميع المفسدين، سواء أكان إفسادهم بالسحر أم بأي نوع آخر من الإفساد: كالإعراض عن الإيمان في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ١٠/ ٤٠]، فنظم الآية يشمل السحر والإعراض عن الإيمان وغير ذلك مما بينه الله في مواضع متفرقة من القرآن الكريم.

جاء في روح المعاني: "﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي جنسهم على الإطلاق فيدخل فيه السحرة دخولاً أولياً، ويجوز أن يراد بالمفسدين المخاطبون فيكون من وضع الظاهر موضع الضمير للتسجيل عليهم بالإفساد والإشعار بعلة الحكم، والجملة تذييل لتعليل ما قبلها وتأكيده"(٢).

---

(١) نفسه: ٤/ ١١١.

(٢) روح المعاني: ١١/ ١٦٧.

فكسب الخطاب القرآني بالتعميم المعنيين جميعاً في آن واحد من أقرب سبيل وأوجز عبارة.

قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [هود: ١١/ ١١٥].

سبق أن من أبواب الإحسان الإيمانَ بالله والجهاد في سبيله والنصح لله ورسوله، وفي هذه الآية إشارة إلى باب آخر من أبواب الإحسان، ألا وهو الصبر، وتكرر مع التقوى في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ١٢/ ٩٠].

وفي هاتين الآيتين لا يربط الخطاب القرآني بين الشرط وجزائه بضمير يجمعهما، بل يؤثر أن يكون الرابط لفظاً عامّاً يجمع الشرط وغيره مما ينطبق عليه العموم ولو كان من غير جنس الشرط، فقد شمل قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ جنس المحسنين من أي باب كان إحسانهم، وأفاد مع ذلك المعنى الخاص في الشرط بأن جعل الصبر في الآية من أبواب الإحسان وعلة للحكم به، فكأنه قال: واصبر فإن الله لا يضيع أجرك؛ لأن الصبر من الإحسان والله لا يضيع أجر المحسنين.

يقول ابن عاشور: "وتوجيه الخطاب إلى النبي ﷺ تنويه به، والمقصود هو وأمته بقرينة التعليل بقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ لما فيه من العموم والتفريع المقتضي جمعهما أنّ الصبر من حسنات المحسنين وإلَّا لَمَا كان للتفريع موقع"[(١)].

فكسب الخطاب المعنيين معاً بعموم اللفظ؛ فالله لا يضيع أجره لأنه صابر والصبر من أبواب الإحسان، والله لا يضيع أجر المحسنين عموماً، سواء أتوا الإحسان من باب الصبر، أم من غيره.

(١) التحرير والتنوير: ١١/ ٣٤٤.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ١٨/ ٣٠].

وما قيل في الآيات السابقة يقال في عموم الإخبار بقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ عن ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ إذ لم يقل (أجرهم) ليشمل المعنيين جميعاً، وصف هذه الفئة بإحسان العمل وجعله علة للحكم بإحسانهم، والإخبار بأن الله لا يضيع أجر جميع المحسنين، وهذه الفئة تدخل في جملتهم، فيكون أخبر عن العام والخاص بلفظ واحد اتساعاً في المعنى وإيجازاً في اللفظ.

وأمثلة هذا النوع من الاتساع في القرآن كثيرة، وتتبعها يطول، فحسبنا ما ذكرنا من أمثلة للتعريف به.

سادساً - احتمال الإنشاء والخبر:

يُعدُّ تردد الجملة بين أساليب الإنشاء والخبر من أسباب الاتساع في دلالة النظم الكريم، فقد يحتمل الخطاب في السياق نفسه أن يكون خبراً، وأن يكون دعاءً أو أمراً أو غير ذلك من أنواع الإنشاء، فيدل على غرضين بتعبير واحد، وفيما يأتي نماذج لذلك:

قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ١/ ٢].

اختلف أهل العلم في جملة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ هل هي إخبارية أم إنشائية؟ فذهب فريق من العلماء أنها إخبارية كما يقتضيه الظاهر، وأن المراد هو الإخبار بثبوت الحمد لله، وذهب فريق إلى أنها إنشائية؛ إذ المراد ذكر الحمد على جهة الثناء والتعظيم، ورأى آخرون أنها خبر يتضمن إنشاءً.

يقول ابن عاشور: "اختلف العلماء في جملة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ هل هي إخبار عن ثبوت (الْحَمْدُ لله) أو هي إنشاء ثناء عليه، إلى مذهبين:

فذهب فريق إلى أنها خبر، وهؤلاء فريقان: منهم من زعم أنها خبر باق على الخبرية ولا إشعار فيه بالإنشائية... وذهب فريق ثان إلى أن جملة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ هي خبر لا محالة إلا أنه أريد منه الإنشاء مع اعتبار الخبرية كما يراد من الخبر إنشاء التحسر والتحزن في نحو ﴿إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ [آل عمران: ٣/ ٣٦]...

المذهب الثاني أن جملة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ إنشاء محض لا إشعار له بالخبرية، على أنها من الصيغ التي نقلتْها العرب من الإخبار إلى إنشاء الثناء...

والحق الذي لا محيد عنه أن ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ خبر مستعمل في الإنشاء فالقصد هو الإنشائية لا محالة، وعدل إلى الخبرية لتحمل جملة الحمد من الخصوصيات ما يناسب جلالة المحمود بها من الدلالة على الدوام والثبات والاستغراق والاختصاص والاهتمام، وشيءٌ من ذلك لا يمكن حصوله بصيغةِ إنشاءٍ، نحو: حمداً لله أو أحمد الله حمداً"(١).

والواضح أنَّ تردُّد الجملة بين الإنشاء والخبر أكسبها فوائد الاثنين معاً؛ إذ إنها إخبار على ما يقتضيه اللفظ، وإنشاء على ما يقتضيه السياق والمعنى من إنشاء الثناء والتعظيم لله تعالى، فاتسعت الجملة للمعنيين معاً واللفظ واحد.

قال تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ١٠].

واختلف أهل العلم في معنى قوله: ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ﴾ فقال

(١) نفسه: ١/ ١٥٨-١٦٠.

بعضهم: هو دعاء عليهم، وقال آخرون: هو إخبار بأن الله قد فعل بهم ذلك، وهذه الزيادة هي بما ينزل من الوحي ويظهر من البراهين، فهي على هؤلاء المنافقين عمى، وكلما كذبوا زاد المرض.

جاء في فتح القدير: "والمراد بقوله: ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ الإخبار بأنهم كذلك بما يتجدد لرسول الله ﷺ من النعم، ويتكرّر له من منن الله الدنيوية والدينية. ويحتمل أن يكون دعاء عليهم بزيادة الشك وترادف الحسرة وفرط النفاق"(١).

وقال القرطبي في الآية: "قيل: هو دعاء عليهم. ويكون معنى الكلام: زادهم الله شكاً ونفاقاً جزاء على كفرهم وضعفاً عن الانتصار وعجزاً عن القدرة،... وعلى هذا يكون في الآية دليل على جواز الدعاء على المنافقين والطرد لهم، لأنهم شر خلق الله. وقيل: هو إخبار من الله تعالى عن زيادة مرضهم، أي: فزادهم الله مرضاً إلى مرضهم"(٢).

فالجملة تحتمل التقديرين، وتجمع بين المعنيين، وتعبِّر عن اتساع النظم الكريم في الدلالة مع إيجاز في العبارة.

قال تعالى: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ [النساء: ٤/ ١١٧-١١٨].

جملة ﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ عقب ذكر الشيطان تحتمل معنيين سائغين، بل لعلهما مرادان في الوقت نفسه، أحدهما الإخبار بصفته، والآخر الدعاء عليه باللعن، وهذا إنشاء وذاك خبر.

يقول العكبري: "قوله تعالى: ﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ يجوز أن يكون صفة

(١) فتح القدير: ١/ ٤٢.
(٢) الجامع لأحكام القرآن: ١/ ١٩٧.

أخرى لـ ﴿شَيْطَٰنَا﴾، وأن يكون مستأنفاً على الدعاء"[١].

وجاء في اللباب: "قوله ﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ فيه وجهان: أظهرهما أنَّ الجُمْلَة صِفَةٌ لـ ﴿شَيْطَٰنَا﴾، فهي في مَحَلِّ نَصْب. والثاني: أنها مُسْتأنفةٌ إمَّا إخْبَار بذلك، وإمَّا دُعَاء عليه"[٢].

فاتسع الخطاب القرآني في هذه الآية للإخبار عن الشيطان والدعاء عليه بعبارة واحدة تحتمل الإنشاء والخبر معاً.

قال تعالى: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ ۖ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥/ ٢٣].

وكذلك وقوع جملة ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ بعد ﴿رَجُلَانِ﴾ جعلها صالحة للوصف إخباراً، وللدعاء اعتراضاً، يقول ابن هشام: "ومن الجمل ما يحتمل الإنشائية والخبرية؛ فيختلف الحكم باختلاف التقدير، وله أمثلة: منها قوله تعالى: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾؛ فإن جملة ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ تحتمل الدعاء فتكون معترضة، والإخبار فتكون صفة ثانية"[٣].

فاتسع النظم الكريم لاحتمالي الإنشاء والخبر جميعاً بلفظ واحد من أيسر سبيل.

قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ﴾ [المائدة: ٥/ ٦٤].

قوله تعالى: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ﴾ يحتمل أن يكون خبراً أخبر الله به الخلق، وأن يكون دعاء على اليهود بذلك.

---

(١) التبيان في إعراب القرآن: ١/ ١٩٥.
(٢) اللباب في علوم الكتاب: ٧/ ٢٢.
(٣) مغني اللبيب: ٥٦٢-٥٦٣.

يقول الرازي: " قوله: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ فيه وجهان:

الأول: أنه دعاء عليهم، والمعنى أنه تعالى يعلمنا أن ندعو عليهم بهذا الدعاء كما علمنا الاستثناء في قوله: ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ [الفتح: ٤٨/ ٢٧]، وكما علمنا الدعاء على المنافقين في قوله: ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ٢/ ١٠]، وعلى أبي لهب في قوله: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١١١/ ١].

الثاني: أنه إخبار. قال الحسن: غلت أيديهم في نار جهنم على الحقيقة، أي: شُدَّت إلى أعناقهم جزاءً لهم على هذا القول"[(١)].

وقد زاد ابن عطية من احتمالات المعنى إذ جعلها خبراً وإنشاءً، وكلاهما يصح أن يكون في الدنيا أو في الآخرة، يقول في المحرر الوجيز: "وقوله تعالى: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ دعاء عليهم، ويحتمل أن يكون خبراً، ويصح على كلا الاحتمالين أن يكون ذلك في الدنيا وأن يراد به الآخرة، وإذا كان خبراً عن الدنيا فالمعنى غلت أيديهم عن الخير والإنفاق في سبيل الله ونحوه، وإذا كان خبراً عن الآخرة فالمعنى غلت في نار جهنم، أي: حتم هذا عليهم ونفذ به القضاء كما حتمت عليهم اللعنة بقولهم هذا وبما جرى مجراه"[(٢)].

فتردُّد الجملة بين الإنشاء والخبر أكسب الآية الكريمة اتساعاً في الدلالة وإيجازاً في اللفظ، إلى جانب اتساع تأويلها بأن يكون ذلك في الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٩/ ٩٨].

قوله تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ يحتمل أن يكون دعاء على هؤلاء

(١) التفسير الكبير: ١٢/ ٣٦.
(٢) المحرر الوجيز: ٢/ ٣١٥.

الأعراب الذين يتربصون بالمؤمنين الدوائر بمثل ما يتربصون به، والدعاء من الله تكوين وتقدير مشوبٌ بإهانة؛ لأنه لا يعجزه شيء فلا يحتاج إلى تمني ما يريده[(١)]، ويجوز أن تكون الجملة إخباراً بأن السوء يستعلي عليهم ويحيط بهم.

يقول أبو حيان: " ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ دعاء معترض، دعاء عليهم بنسبة ما أخبر به عنهم كقوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [المائدة: ٥/ ٦٤]، والدعاء من الله هو بمعنى إيجاب الشيء؛ لأنه تعالى لا يدعو على مخلوقاته وهي في قبضته. وقال الكرماني: عليهم تدور المصائب والحروب التي يتوقعونها على المسلمين، وهنا وعد للمسلمين وإخبار. وقيل: دعاء، أي: قولوا: عليهم دائرة السوء"[(٢)]. ففي نظم الآية اتساع لأسلوبي الخبر والدعاء في آن معاً، واللفظ وجيز مُحكَم النسج.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٩/ ١٢٧].

قوله تعالى: ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ ذهب جماعة من المفسرين إلى أنه دعاء عليهم، على أن الدعاء من الله تكوين وتقدير مشوبٌ بإهانة؛ لأن الله لا يَدْعُو على مخلوقاته، وهي في قبضته. أو أنها دعاء بمعنى قولوا لهم هذا. وذهب آخرون إلى أنه أخبر بصرف قلوبهم عن الخير مجازاة لهم على فعلهم.

جاء في البحر: " ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ صيغته خبر، وهو دعاء عليهم بصرف قلوبهم عما في قلوب أهل الإيمان، قاله الفراء. والظاهر أنه خبر لما كان الكلام في معرض ذكر التكذيب، بدأ بالفعل المنسوب إليهم

---

(١) التحرير والتنوير: ١٠/ ١٨٩.

(٢) البحر المحيط: ٥/ ٩٥.

وهو قوله: ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُوٓاْ﴾، ثم ذكر فعله تعالى بهم على سبيل المجازاة لهم على فعلهم كقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ [الصف: ٦١/ ٥]"[(١)].

ويخصُّها الزمخشري بالدعاء إذ يقول: " ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ دعاء عليهم بالخذلان وبصرف قلوبهم عما في قلوب أهل الإيمان من الانشراح ﴿بِأَنَّهُمۡ﴾ بسبب أنهم ﴿قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ﴾ لا يتدبرون حتى يفقهوا"[(٢)].

أما ابن عاشور فيرى أنها إخبار لا غير، على سبيل الاستئناف البياني بعد الإخبار بانصرافهم، يقول: "وجملة ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً؛ لأن ما أفاده قوله: ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُوٓاْ﴾ من عدم انتفاعهم بما في تلك السورة من الإخبار بالمغيبات الدال على صدق الرسول ﷺ يثير سؤال من يسأل عن سَبب عدم انتفاعهم بذلك واهتدائهم، فيجاب بأن الله صرف قلوبهم عن الفهم بأمر تكويني فحُرموا الانتفاع بأبلغ واعظ. وكان ذلك عقاباً لهم بسبب أنهم ﴿قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ﴾، أي: لا يفهمون الدلائل، بمعنى لا يتطلبون الهدى بالتدبر فيفهموا"[(٣)].

والجملة بعد هذه الأقوال متسعة للأسلوبين وتحتمل المعنيين، والنظم مع ذلك معجِز موجَز.

قال تعالى: ﴿قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ١٢/ ٩٢].

وجملة ﴿يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ﴾ في الآية الكريمة تحتمل كذلك الإنشاء والخبر بحسب التعليق؛ إذ يمكن أن يكون المعنى نفي التثريب في ذلك اليوم، ثم إنشاء الدعاء لهم بالمغفرة، ويمكن أن يكون المعنى نفي

(١) نفسه: ٥/ ١٢٠.
(٢) الكشاف: ٢/ ٣١٠.
(٣) التحرير والتنوير: ١٠/ ٢٣٦.

التثريب عموماً، ثم الإخبار بأنه يوم المغفرة ﴿ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ﴾.

جاء في فتح القدير: "جوّز الأخفش الوقف على ﴿عَلَيۡكُمُ﴾، فيكون ﴿ٱلۡيَوۡمَۖ﴾ متعلق بالفعل الذي بعده. وقد ذكر مثل هذا ابن الأنباري، ثم دعا لهم بقوله: ﴿يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ﴾ على تقدير الوقف على اليوم. أو أخبرهم بأن الله قد غفر لهم ذلك اليوم على تقدير الوقف على ﴿عَلَيۡكُمُ﴾"[(١)].

فقول يوسف (عليه السلام) لإخوته: ﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ﴾ جمع احتمالي الخبر وإنشاء الدعاء بجملة واحدة؛ إيجازاً في العبارة واتساعاً في الدلالة.

قال تعالى: ﴿قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدۡنَا مَهۡلِكَ أَهۡلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [النمل: ٢٧/ ٤٩].

جملة ﴿تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ﴾ في الآية الكريمة جمعت بين أسلوبي الإنشاء والخبر، الإنشاء باعتبار الفعل بصيغة الأمر، والخبر باعتبار الفعل ماضياً والجملة حالاً.

جاء في روح المعاني: " ﴿تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ﴾ أمر من التقاسم، أي: التحالف، وقع مقول القول وهو قول الجمهور. وجوز أن يكون فعلاً ماضياً بدلاً من ﴿قَالُواْ﴾، أو حالاً من فاعله بتقدير (قد) أو بدونها، أي: قالوا متقاسمين. ومقول القول ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥ﴾ إلخ، وجوز أبو حيان على هذا أن يكون بالله من جملة المقول"[(٢)].

ويقول الرازي: "أما قوله: ﴿تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ﴾ فيحتمل أن يكون أمراً أو خبراً في محل الحال بإضمار قد، أي: قالوا متقاسمين"[(٣)].

---

(١) فتح القدير: ٣/ ٥٣.
(٢) روح المعاني: ١٩/ ٢١٣.
(٣) التفسير الكبير: ٢٤/ ١٧٤.

ففي الخطاب القرآني في هذه الآية اتساع لمعنيي الأمر والإخبار عن الحال، واللفظ واحد جمعهما معاً بكلمة احتمالية واحدة.

سابعاً - دلالة اللفظ على معنيين مجازيين:

قد يستخدم اللفظ للدلالة على معنى مجازي وهو في العربية والقرآن كثير، وقد يجتمع مع دلالته الحقيقية دلالة مجازية، وقد مرَّت أمثلته في اتساع الدلالة لأسباب لغوية، والذي يعنينا هنا أن يتخلّى الخطاب عن الدلالة الحقيقية ويُعمل اللفظ في معنيين مجازيين في وقت معاً، وفيما يأتي نماذج لآيات أدَّت غرضين معاً من طريق المجاز:

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٠٤-٢٠٥].

الحرث في قوله تعالى: ﴿وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۗ﴾ تحتمل معنيين مجازيين:

أولهما: الزرع، وإطلاق الحرث على الزرع مجاز؛ لما بينهما من علاقة مكانية وسببية، إذ الزرع في مكان الحرث، والحرث من أسباب الزرع.

وقد فرق الراغب بين الحرث والزرع، فقال: الحرث إلقاء البذر وتهيئة الأرض، والزرع مراعاته وإنباته، ولذلك قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَحۡرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ [الواقعة: ٥٦/ ٦٣-٦٤]، أثبت لهم الحرث ونفى عنهم الزرع[1].

(١) المفردات: (حرث) و(زرع).

وهذه الآية نزلت في الأخنس بن شريق، كان يظهر المودة للنبي ﷺ ويضمر العداوة، قيل: إنه حرق زرعاً للمسلمين وقتل حميراً لهم فنزلت فيه هاته الآية[(١)].

الثاني: النساء، وقد جاء إطلاق الحرث على النساء في قوله تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٢٣]، يقول الراغب: "وذلك على سبيل التشبيه، فبالنساء زرع ما فيه بقاء نوع الإنسان كما أن بالأرض زرع ما به بقاء أشخاصهم"[(٢)].

يقول أبو حيان في الوجهين: "وعلى ما تقدم من أن الآية في الأخنس، يكون الحرثُ الزرعَ، والنسلُ الحمرَ التي قتلها، فيكون النسل المراد به الدواب ذوات النسل. وقيل: المراد هنا بالحرث هنا النساء، وبالنسل الأولاد، وقال تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ وذكره ابن عطية عن الزجاج احتمالاً، فيكون من الكناية، وهو من ضروب البيان"[(٣)].

والخلاصة أن الحرث في قوله تعالى: ﴿وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ﴾ يتناول الحرثين، الزرع والنساء مجازاً وإيجازاً، جمعهما بلفظ واحد من أقرب سبيل.

قال تعالى: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣/ ٢٠].

الوجه في قوله تعالى: ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾ يحتمل دلالتين مجازيتين:

---

(١) التحرير والتنوير: ٢/ ٢٥٠.

(٢) المفردات: (حرث).

(٣) البحر المحيط: ٢/ ١٢٥.

الأولى: جميع الذات؛ لأن الوجه أشرف الأعضاء، وهو من إطلاق الجزء وإرادة الكل مجازاً، وإذا خضع الوجه فما سواه أخضع، ومنه قوله تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٥٥/ ٢٧].

جاء في فتح القدير: " ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾ أي: أخلصت ذاتي لله، وعبر بالوجه عن سائر الذات لكونه أشرف أعضاء الإنسان، وأجمعها للحواس "(١).

والثانية: أن يكون الوجه مصدراً محذوف الزوائد، أي: إطلاق الوجه على الاتجاه، والمراد القصد، يقول الثعالبي: "وقوله: ﴿وَجْهِيَ﴾ يحتمل أن يراد به المقصد، أي: جعلت مقصدي لله. ويحتمل أن يراد به الذات. أي: أسلمت شخصي وذاتي لله(٢).

ويقول أبو السعود: "أي أخلصتُ نفسي وقلبي وجملتي، وإنما عبر عنها بالوجه لأنه أشرفُ الأعضاء الظاهرة ومظهرُ القُوى والمشاعر ومجمعُ معظم ما تقع به العبادةُ من السجودِ والقراءة، وبه يحصل التوجُّه إلى كل شيء "(٣).

فبقوله: " ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾ جمع الذات والقصد بلفظ واحد، وكلاهما مجاز، اتسع في دلالته وأوجز في عبارته.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٦/ ٦٠].

أصل الجرح تمزيق جلد الحيّ بشيء محدّد مثل السكين والسيف والظُفُر والناب، ثم يستخدم في الكسب والعمل مجازاً.

(١) فتح القدير: ١/ ٣٢٦.
(٢) الجواهر الحسان: ١/ ٢٥٣.
(٣) إرشاد العقل السليم: ٢/ ١٨.

يقول الزبيدي: "الجُرْح بالضمّ: يكون في الأَبدانِ بالحَديد ونَحْوِه، والجَرْحُ بالفتح: يكون باللّسان في المَعانِي والأَعراضِ ونحوِها. وهو المُتداوَلُ بينهم وإِن كانا في أَصلِ اللُّغة بمعنىً واحد...، جَرَحَ الشَّيْءَ كَمنع: اكْتَسَبَ، وهو مجازٌ كاجْتَرَحَ... وفي التنزيل: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الجاثية: ٤٥/ ٢١] أَي: اكْتَسبوا. وفي الأَساس: وبِئْسَما جَرَحَتْ يَداك واجْتَرَحَتْ أَي عَمِلتَا وأَثَّرَتَا. وهو مُستعار من تأَثيرِ الجَارِح"(١).

وبالمعنيين المجازيين فسَّر العلماء الآية الكريمة، يقول أبو حيان: "ومعنى ﴿جَرَحْتُم﴾ كسبتم، ومنه جوارح الطير، أي: كواسبها. و﴿ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ اكتسبوها، والمراد منها أعمال الجوارح. ومنه قيل للأعضاء جوارح. قال ابن عطية: ويحتمل أن يكون من الجرح، كأن الذنب جرح في الدين، والعرب تقول: وجرح اللسان كجرح اليد"(٢).

فالآية فُسِّرت بمعنى الكسب والاكتساب، أي: الأعمال خيرها وشرّها، كما فُسِّرت بالذنوب، وكلاهما مجاز، غير أن الأول أوسع في المعنى.

قال تعالى: ﴿قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ﴾ [التوبة: ٩/ ٢٩].

(اليد) في كلام العرب مجال رحب للمجاز، يقول الزمخشري: "سقط في يده: ندم. والقوم عليّ يدٌ واحدة وساق واحدة إذا اجتمعوا

(١) تاج العروس: (جرح).

(٢) البحر المحيط: ٤/ ١٥٠.

على عداوته. وله يد عند الناس: جاه وقدر... وهو أطول يداً منه: أسخى. وأعطى بيده: انقاد"[١].

ومن الدلالات المجازية لليد في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ﴾ أن تكون بمعنى القوة منكم، والانقياد منهم، ومنها أن تكون الجزية معجَّلة غير مؤجَّلة، جاء في أساس البلاغة: "وأعطوا الجزية عن يدٍ: عن انقياد واستسلام، أو نقداً بغير نسيئة"[٢].

ويقول الثعالبي: " ﴿عَن يَدٍ﴾ يحتمل وجوهاً: منها أن يريد عن قوة منكم عليهم وقهر، واليد في كلام العرب القوة. ومنها أن يريد سوق الذمي لها بيده لا أن يبعثها مع رسول؛ ليكون في ذلك إذلال لهم. ومنها أن يريد نقدها ناجزاً، تقول بعته يداً بيد، أي: لا يؤخرون بها. ومنها أن يريد عن استسلام، يقال: ألقى فلان بيده إذا عجز واستسلم"[٣].

وكل تلك المعاني مراد في الآية الكريمة، عبَّرت عنها بلفظ (اليد) مجازاً وإيجازاً، ولو عبَّر عنها بغير (اليد) لاحتاج إلى عدة جمل قام مقامها لفظ واحد.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الجمعة: ٦٢/٩].

﴿ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ في الآية الكريمة يحتمل معنيين مجازيين؛ أحدهما: الصلاة، وهي بعض الذكر. والآخر: الخطبة، وهي محلّ الذكر.

يقول الألوسي: "والمراد بذكر الله الخطبة والصلاة، واستظهر أن

(١) أساس البلاغة: (يدي)، الزمخشري، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر (٥٣٨هـ)، تح: عبد الرحيم محمود. دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٩م.
(٢) أساس البلاغة: (يدي).
(٣) الجواهر الحسان: ٢/ ١٢٥.

المراد به الصلاة، وجوز كون المراد به الخطبة. وهو على ما قيل مجاز من إطلاق البعض على الكل كإطلاقه على الصلاة، أو لأنها كالمحل له"[1].

وكلا المعنيين مراد في الآية، فهو أمر بالسعي إلى الخطبة والصلاة جميعاً بلفظ واحد، ولو ذكر أحدهما لما أفاد الثاني، ولكنه أتى بهما بتعبير مجازي يشملهما معاً من أقرب سبيل.

(١) روح المعاني: ٢٨/ ١٠٢.

الخاتمة

تناولنا في هذا البحث ظاهرة أسلوبية تفنَّن الخطاب القرآني في إبداعها واستثمارها، ألا وهي اتساع الخطاب لمعانٍ عديدة بألفاظ قليلة، وهو باب في الإيجاز والإعجاز عريض، تناثرت شذراته في كتب التفسير واللغة والأدب، اجتهدنا في لقط دررها وجمع شتاتها في بحث يتتبع الظاهرة، ويرسم معالمها، ويبين أسبابها، فكان هذا البحث في تمهيد وأربعة فصول.

خصَّصنا التمهيد لاستجلاء مصطلح الاتساع لغة، ثم اصطلاحاً، في علم القراءات، وعلوم العربية من لغة ونحو وصرف وبلاغة.

وقد تباين مفهوم المصطلح بين هذه العلوم تبايناً كبيراً، فحاولنا تقصِّي المصطلح في تلك العلوم؛ لنحدد معالمه، ونبين مفهومه في كتب التراث قبل أن نشرع في الدراسة.

ففي علم القراءات وجدنا مصطلح (الاتساع) يدلُّ على إعطاء الحركة فوق حقِّها من المد لتنقلب حرفاً، وذلك نحو قبيح وزيادة في كلام الله تعالى.

وعند اللغويين وجدنا دلالة الاتساع لا تخرج عن معنى التساهل والتسمُّح في دقة التعبير عن المعنى المراد في المفردات والأساليب على حدٍّ سواء.

ويستعمل مصطلح الاتساع عند النحاة رديفاً للخروج عن الأصل في التركيب، وبمعنى التساهل في الأخذ بالضوابط والقواعد في مسائل متناثرة وردت في مباحث الظرف، والمصدر، والحذف، والأسماء، والأفعال، والحروف، وغيرها مما تفرق في كتبهم.

ووجدنا الاتساع في علم الصرف يدلُّ على مخالفة القياس في وضع جمع الكثرة موضع جمع القلة، وفي بعض موازين الجموع، وكذلك إبدال الحروف في بعض الكلمات.

وفي فنون البلاغة العربية وجدنا المصطلح شديد الاضطراب؛ ففي علم المعاني ورد الاتساع رديفاً للتفنن في الفصاحة، وغاية للتقديم والتأخير، وأحياناً يُراد به الإيجاز بالحذف.

وفي علم البيان ذُكر أحياناً صنواً للتشبيه، وورد أيضاً مع المجاز بنوعيه العقلي واللغوي، والمجاز اللغوي بشطريه الاستعارة والمجاز المرسل، فتارة وجدنا التوسع رديفاً للمجاز العقلي في الإسناد، وأخرى شطراً للمجاز المرسل، وكثيراً ما أُدرج تحت أنواعه المختلفة، أو أُريد به الاستعارة.

أما في علم البديع فقد وجدنا لمصطلح الاتساع دلالتين مختلفتين، أولاهما: الإتيان في عجز الكلام بمثنى مفسر باسمين ثانيهما معطوف على الأول. والأخرى: أن يقول الشاعر بيتاً يحتمل معاني شتى يحتاج الناظر فيه إلى تأويلات عدة، ويرجح ما يترجح منها بالدليل.

ثم آثرنا رسم معالم الاتساع الذي أردناه لهذا البحث؛ فكان دلالة الخطاب على عدة معان محتملة في تركيب لغوي واحد، يتسع فيه التأويل على قدر قُوى الناظر فيه، وبحسب ما تحتمل ألفاظه، لو اختل هذا التركيب لانفرط عقد تلك المعاني، واحتيج إلى تراكيب بعدد تلك المعاني لتعبِّر عنها.

ثم تناولنا العوامل التي تغني الخطاب بتلك المعاني المحتملة في أربعة فصول:

خصصنا الفصل الأول منها بالعلاقات النحوية وأثرها في زيادة معاني النظم الكريم، وقد بحثنا هذا في اختلاف تعليق الظرف، وتعليق الجار والمجرور، وأثر ذلك في توسيع الدلالة؛ إذ إن تعليق شبه الجملة لا ينفك عن المعنى، فإذا اختلف المعنى اختلف التعليق، وإذا اختلف التعليق اختلف المعنى، ورأينا أن الخطاب القرآني قد أفاد كثيراً من الاحتمالات المتعددة في تعليق أشباه الجمل لتوسيع دائرة المعاني والأحكام.

ودرسنا كذلك نماذج من اختلاف الإعراب وعلاقته بتعدد دلالات الخطاب؛ فكل إعراب له معنى، ولكل معنى إعراب، وإن كان النص واحداً، وقد أبدع النظم الكريم في استثمار الاحتمالات الدلالية وأعاريبها المختلفة في كثير من نصوص التنزيل.

وتناولنا في هذا الفصل إمكانية أن يعود الضمير على اسمين أو ثلاثة في عبارة واحدة مما أغنى الخطاب القرآني بكثرة المعاني مع قلة الألفاظ؛ إذ إن الضمير ينوب عن ذكر الاسم المفيد لمعنى محدد، فإذا أمكن ربط الضمير باسمين أو أكثر اتسعت دائرة الإفادة في المعاني وما يتصل بها من مرامي الكلام وربما الأحكام.

ثم رأينا وسيلة فريدة يعتمدها القرآن الكريم في تذكير المضاف المؤنث أو تأنيث المذكر تبعاً للمضاف إليه؛ من أجل توسيع دلالة الخطاب مع المحافظة على قلَّة المفردات، مما يشي بقصد الخطاب من الجمع بين معنيي المضاف والمضاف إليه معاً بعبارة واحدة موجزة، وقد عرضنا نماذج من هذا القبيل وردت في الشعر العربي وجاء بمثلها الخطاب القرآني.

وتناولنا أيضاً أسلوب القرآن الكريم في توسيع الدلالة بالجمع بين الفعل واسم مصدره، فوجدنا أن هذا الأسلوب يُراد به الجمع بين ثلاثة معان أحياناً: معنى الفعل، ومعنى اسم المصدر، ومعنى التوكيد الذي يساق لأجله المصدر.

ورأينا في هذا الفصل أيضاً أن من العوامل النحوية التي أسهمت في توسيع دلالات الخطاب القرآني وقوع الجملة في موقع يحتمل الوصف والاستئناف والحال، مما يؤدي إلى توسيع المراد بأقل الألفاظ.

وكان أخيراً من العوامل النحوية التي وجدنا لها أثراً في توسيع دلالة الخطاب القرآني احتمال إسناد العبارة إلى غير واحد من المتكلمين، وفي اختلاف المتكلم بالعبارة توسيع لنطاق المعاني السياقية في النص وإن كانت العبارة واحدة.

وتحدثنا في الفصل الثاني عن العوامل الصرفية في توسيع معاني النص؛ إذ وجدنا أن البناء الصرفي لكثير من المفردات القرآنية أسهم في توسيع الكثير من دلالات الخطاب القرآني، ورصدنا ذلك في دلالة الوزن الصرفي على عدد من الصيغ الصرفية؛ فقد ترد الكلمة الواحدة في سياق ما تحتمل أوجهاً بحسب بنيانها وتقليب النظر في جوانبها.

وكذلك في دلالة الوزن الصرفي على صيغة صرفية ومعنى معجمي من جذر واحد؛ فمن الوسائل التي اعتمدها الخطاب القرآني في توسيع دلالاته استثمار المفردة القرآنية من جهتين، جهة الميزان الصرفي، وجهة المعنى المعجمي، وذلك بأن ترِد الكلمة دالَّة على معنيين؛ أحدهما يُرَدُّ لعوامل صرفية، والآخر لدلالة لفظية، وكلاهما مشتق من جذر لغوي واحد، وكلاهما يمكن أن يكون مراداً.

وأيضاً تلمسنا ذلك في تعدد معاني الصيغة الصرفية، إذ إن الصيغة الصرفية وما تحمله من معان مختلفة كانت من الوسائل التي اعتمدها

الخطاب القرآني في توسيع الدلالة لكثير من المفردات القرآنية؛ وذلك بأن ترِد الكلمة دالَّة على معنيين أو أكثر، يُرَدُّ كل واحد إلى معنى من المعاني التي تحتملها الصيغة الصرفية.

وبحثنا كذلك في دلالة الصيغة الواحدة على معنيين مختلفين من جذر لغوي واحد، وقد رأينا في نماذج متعددة أن المفردة اللغوية إذا ما سبكت في صيغة صرفية معينة قد تدلُّ على معنيين مختلفين، رغم اشتقاقهما من الجذر اللغوي نفسه، وقد اعتمد الخطاب القرآني هذا الأسلوب في توسيع الدلالة في آياته البيِّنات التي عرضنا نماذج منها، وبيَّنا اتساع دلالاتها.

ومما وجدناه من العوامل الصرفية أيضاً أن ثمة أفعالاً في العربية تحتمل الأزمنة الثلاثة مجتمعة أو متفرقة إذا ما أُحكم نظمها في بعض التراكيب اللغوية، وأفعالاً أخرى تؤدي معنيين، فتستعمل لازمة أحياناً ومتعدية أحياناً أخرى، وقد أفاد الخطاب القرآني من النوعين، من اتساع الدلالة الزمنية في الفعل، ومن اتساع الفعل للزوم والتعدي في المعنى، فجمع الغرضين بفعل واحد أحياناً.

أما الفصل الثالث فجعلناه لأثر العوامل اللغوية في توسيع المعاني؛ فقد كان استثمار الطاقة التعبيرية في حروف المعاني من الوسائل التي اعتمدها الخطاب القرآني في توسيع دلالاته؛ إذ يدلُّ كل حرف من حروف المعاني على معنيين أو أكثر، وقد يجتمع في الحرف بعض معانيه في سياق واحد، فيتَّسع الخطاب لتأويلات متعددة بعدد تلك المعاني.

وكذلك استثمر الخطاب القرآني تعدد الدلالة المعجمية للمفردات التي قد يكون مردُّها إلى دلالة الكلمة على عدة معان من جذر واحد، وتعدد دلالات الكلمة الواحدة في المعاجم لا يكاد يُحصى.

وتناولنا في هذا الفصل أيضاً تلاقي كلمتين مختلفتين من جذرين مختلفين على صورة واحدة تجمعهما معاً، فاتسعت دلالة الخطاب للمعنيين جميعاً، فكانا مرادين معاً، وقد عرضنا نماذج من هذا القبيل.

ورأينا أيضاً اتخاذ الخطاب القرآني مسلكاً لطيفاً في بعض المفردات؛ إذ جمع فيها بين الحقيقة والمجاز فأدَّت المعنيين جميعاً في آن معاً إيجازاً واتساعاً، ناقشنا أمثلة منه في هذا الفصل.

ثم كان الفصل الأخير لمناقشة العوامل البلاغية والتفنُّن في نسج التراكيب وإحكام النظم؛ للتعبير عن مزيد من المعاني بنقص الألفاظ في أغلب الأحيان وفق أساليب العرب وسننها في الكلام، وفوقها في الفصاحة والبيان.

وقد ناقشنا في هذا الفصل سبعة عوامل في توسيع دلالة الخطاب:

أولها كان التضمين، وقد رأينا أن التضمين له غرض بلاغي لطيف، وهو الجمع بين معنيين بأخصر أسلوب، وذلك بإشراب لفظ معنى لفظ آخر، وتعدية المذكور بالحرف الذي يتعدى به المضمَّن، فيجتمع معنيان في تعبير واحد: معنى الفعل المذكور ومعنى المحذوف الذي ذُكر شيء من متعلقاته.

والثاني كان أسلوب الحذف وأثره في توسيع الدلالة؛ إذ الحذف وسيلة من الوسائل البلاغية التي اعتمدها الخطاب القرآني في كثير من آياته الكريمة، وقد تنوع الحذف، كما رأينا، بين حروف ومفردات وتراكيب.

والثالث كان فن الاستخدام، وهو فن بديعي لطيف يجعل اللفظ المشترك يخدم معنيين معاً في الوقت ذاته، بقرينتين مختلفتين.

والرابع كان تقديم لفظ على آخر في نظم الخطاب القرآني؛ ليشمل

معنيين في وقت واحد، فيزيد في المعاني من دون أن يزيد في المباني، وما هو إلا تقديم أو تأخير.

والخامس من الوسائل التي اعتمدها الخطاب القرآني في توسيع دلالات التركيب أن يخالف بين صدر الكلام وعجزه، فقد يكون المبتدأ أو الشرط خاصّاً فيعقبه بالخبر أو الجزاء عامّاً شاملاً فيدخل فيه صدر الكلام دخولاً أوليّاً، فيكسب المعنيين معاً الخاص أولاً والعام ثانيّاً، وقد استعرضنا نماذج لهذا الفن في التعبير القرآني.

والسادس من أسباب الاتساع في دلالة النظم الكريم كان تردد الجملة بين أساليب الإنشاء والخبر، وقد رأينا نماذج احتمل الخطاب فيها أن يكون خبراً، وأن يكون دعاءً أو أمراً، أو غير ذلك من أنواع الإنشاء، فدلَّ على غرضين بتعبير واحد.

وأخيراً تناولنا نماذج من آيات الله البينات تخلّى فيها الخطاب عن الدلالة الحقيقية وأعمل اللفظ في معنيين مجازيين معاً في وقت واحد، فأدَّت مجموع الغرضين من طريق المجاز.

هذا ونشير في نهاية المطاف إلى ما تناثر في تضاعيف هذه الرسالة من آثار اتساع الدلالة في الخطاب القرآني، كاختلاف الوقف في القراءة بما يتناسب مع المعنى، وقد رأينا نماذج كثيرة من هذا القبيل، ولا سيما اختلاف تعليق أشباه الجمل، واختلاف الإعراب، واختلاف دلالة حروف المعاني، واحتمال الجملة للإنشاء والخبر.

ومن آثار اتساع الدلالة كذلك اختلاف الأحكام الفقهية كالذي رأيناه من اختلاف الفقهاء في مقدار مسح الرأس تبعاً لاختلافهم في دلالة الباء في آية الوضوء، وكذلك اختلافهم في آية الصيام في الحج، بحسب تقدير المحذوف من زمان الحج أو مكانه، وغير ذلك من الأحكام التي أشرنا إليها في مواضعها.

ولعل أبرز ما ينبغي الإشارة إليه في الختام هو ما نراه ميزة للبحث في جمعه مادة وافرة في موضوعه، متناثرة في مصادرها، لَمَّ شملها، وقيَّد شاردها، وردَّ قاصيها إلى دانيها، ثم رتبها في عناوين كبرى وصغرى، ثم حلّل وناقش، وأخذ هذا وردّ ذاك، واستعان بالشاهد والدليل لترجيح قول على قول، وموافقة رأي دون آخر.

﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٨١ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

قائمة المصادر والمراجع

١. **القرآن الكريم.**

- **الاستراباذي النحوي، رضي الدين محمد بن الحسن (٦٨٦هـ)،**

٢. شرح شافية ابن الحاجب، تحقيق محمد نور الحسن - محمد الزفزاف - محمد محيي الدين عبد الحميد، (بيروت: دار الفكر العربي، ١٩٧٥م).

- **امرؤ القيس،**

٣. شرح ديوان امرئ القيس، جمع وتحقيق حسن السندوبي، شرح أسامة صلاح الدين منيمنه، (بيروت: دار إحياء العلوم، ١٩٩٦م)، ط٢.

- **ابن الأثير، أبو الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم،**

٤. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، (بيروت: المكتبة العصرية، ١٩٩٥م).

- **الأزهري، خالد بن عبد الله (٩٠٥هـ)،**

٥. مُوَصِّل الطلاب إلى قواعد الإعراب، تحقيق د. عبد الكريم مجاهد، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ٢٠٠٠م)، ط١.

- **الأزهري، أبو منصور محمد بن أحمد،**

٦. تهذيب اللغة، تحقيق محمد عوض مرعب، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ٢٠٠١م)، ط١.

- **ابن أبي الأصبع، زَكي الدّين عبْد العَظيم بن عبْد الوَاحد بن ظَافر بن عبْد الله بن محمّد،**

٧. تحْرير التحْبير في صِناعة الشّعر والنثْر وبَيان إعجاز القرآن، تحقيق حفني محمد شرف، (القاهرة: المجْلس الأعْلى للشّؤون الإسْلامية، ١٩٦٣م).

■ **الأعشى،**

٨. ديوان الأعشى، شرح د. يوسف شكري فرحات، (بيروت: دار الجيل، ١٩٩٢م)، ط١.

■ **الألوسي البغدادي، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود بن عبد الله الحسيني (١٢٧٠هـ)،**

٩. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، (بيروت: دار إحياء التراث العربي).

■ **الأنباري، أبو البركات عبد الرحمن بن محمد بن أبي سعيد (٥٧٧هـ)،**

١٠. أسرار العربية، تحقيق د. فخر صالح قدارة، (بيروت: دار الجيل، ١٩٩٥م)، ط١.

١١. الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، (دمشق: دار الفكر).

■ **الباقلاني، أبو بكر محمد بن الطيب (٤٠٣هـ)،**

١٢. إعجاز القرآن، تحقيق السيد أحمد صقر، (القاهرة: دار المعارف، ١٩٩٧م)، ط٥.

■ **البخاري الجعفي، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل،**

١٣. الجامع الصحيح المختصر، تحقيق د. مصطفى ديب البغا، (بيروت: دار ابن كثير، اليمامة، ١٩٨٧م)، ط٣.

■ **البغدادي، عبد القادر بن عمر(١٠٩٣هـ)،**

١٤. خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق محمد نبيل طريفي - إميل بديع اليعقوب، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٨م)، ط١.

■ **البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود (٥١٦)،**

١٥. معالم التنزيل، حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر - عثمان جمعة ضميرية - سليمان مسلم الحرش، (دار طيبة، ١٩٩٧م)، ط٤.

■ **البيضاوي، أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد بن علي الشيرازي (٦٨٥هـ)،**

١٦. أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق عبد القادر عرفان العشا حسونة، (بيروت: دار الفكر، ١٩٩٦م).

- **الترمذي السلمي، أبو عيسى محمد بن عيسى،**

١٧. الجامع الصحيح سنن الترمذي، تحقيق أحمد محمد شاكر وآخرين، (بيروت: دار إحياء التراث العربي).

- **التوحيدي، أبو حيان، ومسكويه،**

١٨. الهوامل والشوامل، تحقيق أحمد أمين - والسيد أحمد صقر، (مصر: مكتبة الثقافة الدينية، ١٩٥١م).

- **ابن ثابت، حسان،**

١٩. ديوان حسان بن ثابت، شرح د. يوسف عيد، (بيروت: دار الجيل، ١٩٩٢م)، ط١.

- **الثعالبي، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف (٨٧٦هـ)،**

٢٠. الجواهر الحسان في تفسير القرآن، (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات).

- **الثّعالبي، أبو منْصور عبْد المَلك بِن محمّد بِن إسْماعيل النيْسابوري،**

٢١. فقْه اللّغة وسِر العربيّة، تحقيق مصْطفى السّقا - إبراهيم الأبياري - عبْد الحفيظ شلبي، (بيروت: دار الفكْر، ١٩٦٤م)، ط٣.

- **الجرجاني، أبو الحسن،**

٢٢. حاشية السيد الشرف أبي الحسن الجرجاني على الكشاف، طبعت مع الكشاف.

- **الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد،**

٢٣. دلائل الإعجاز، تحقيق د. محمد التنجي، (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٩٥م)، ط١.

- **الجرجاني، علي بن محمد بن علي (٨١٦هـ)،**

٢٤. كتاب التعريفات، تحقيق إبراهيم الأبياري، (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٥هـ)، ط١.

- **جرير،**

٢٥. ديوان جرير، (بيروت: دار صادر، ١٩٩١م).

- **الجعدي، النابغة،**

٢٦. ديوان النابغة الجعدي، جمع وتحقيق د. واضح الصمد، (بيروت: دار صادر، ١٩٩٨م) ط١.

■ **ابن جني، أبو الفتح عثمان (٣٩٢)،**

٢٧. الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، (بيروت: عالم الكتب).

٢٨. سر صناعة الإعراب، تحقيق د. حسن هنداوي، (دمشق: دار القلم، ١٩٨٥م)، ط١.

٢٩. اللمع في العربية، تحقيق فائز فارس، (الكويت: دار الكتب الثقافية، ١٩٧٢م).

■ **ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي بن محمد،**

٣٠. زاد المسير في علم التفسير، (بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤٠٤هـ)، ط٣.

■ **ابن الحاجب، جمال الدين أبو عمرو عثمان بن عمر الدويني النحوي،**

٣١. الشافية في علم التصريف، تحقيق حسن أحمد العثمان، (مكة المكرمة: المكتبة المكية، ١٩٩٥م)، ط١.

■ **حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله القسطنطيني الرومي الحنفي،**

٣٢. كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٢م).

■ **ابن حجة الحموي، تقي الدين أبو بكر علي بن عبد الله،**

٣٣. خزانة الأدب وغاية الأرب، تحقيق عصام شعيتو، (بيروت: دار ومكتبة الهلال، ١٩٨٧م)، ط١.

■ **الحموي، أبو العباس أحمد بن عمر بن محمد بن أبي الرضا،**

٣٤. القواعد والإشارات في أصول القراءات، تحقيق د. عبد الكريم محمد الحسن بكار، (دمشق: دار القلم، ١٤٠٦هـ)، ط١.

■ **أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف،**

٣٥. البحر المحيط، تحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ علي محمد معوض وآخرين، (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠١م)، ط١.

■ **ابن خالويه، أبو عبد الله الحسين بن أحمد،**

٣٦. الحجة في القراءات السبع، تحقيق د. عبد العال سالم مكرم، (بيروت: دار الشروق، ١٤٠١هـ)، ط٤.

■ **الرَّازي، فخر الدين محمد بن عمر التميمي (٦٠٦هـ)،**

٣٧. التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٠م)، ط١.

- **الرَّازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر،**

٣٨. مختار الصحاح، (بيروت: مكتبة لبنان، ١٩٩٥م).

- **الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد (٥٠٢هـ)،**

٣٩. المفردات في غريب القرآن، تحقيق محمد خليل عيتاني، (بيروت: دار المعرفة، ١٩٩٩م)، ط٢.

- **ابن رشيق القيرواني، أبو علي الحسن (٤٥٦هـ)،**

٤٠. العمدة في صناعة الشعر ونقده، تحقيق د. النبوي عبد الواحد شعلان، (القاهرة: مكتبة الخانجي، ٢٠٠٠م)، ط١.

- **الزبيدي، محمد مرتضى (١٢٠٥هـ)،**

٤١. تاج العروس من جواهر القاموس، (مصر: المطبعة الخيرية بجمالية مصر، ١٣٠٦هـ)، ط١.

- **الزجاج، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن سهل،**

٤٢. تفسير أسماء الله الحسنى، تحقيق أحمد يوسف الدقاق، (دمشق: دار الثقافة العربية، ١٩٧٤م).

- **الزركشي، أبو عبد الله محمد بن بهادر بن عبد الله،**

٤٣. البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، (بيروت: دار المعرفة، ١٣٩١هـ).

- **الزمخشري، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر (٥٣٨هـ)،**

٤٤. أساس البلاغة، تحقيق عبد الرحيم محمود، (بيروت، دار المعرفة، ١٩٧٩م).

٤٥. الفائق في غريب الحديث، تحقيق علي محمد البجاوي - محمد أبو الفضل إبراهيم، (لبنان: دار المعرفة)، ط٢.

٤٦. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق عبد الرزاق المهدي، (بيروت: دار إحياء التراث العربي).

٤٧. المفصل في صنعة الإعراب، تحقيق د. علي بو ملحم، (بيروت: دار ومكتبة الهلال، ١٩٩٣م)، ط١.

- **ابن زنجلة، أبو زرعة عبد الرحمن بن محمد،**

٤٨. حجة القراءات، تحقيق سعيد الأفغاني، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٢م)، ط٢.

- **السامرائي، د. فاضل صالح،**

٤٩. التعبير القرآني، (عمَّان: دار عمَّار، ٢٠٠٢م)، ط٢.

٥٠. الجملة العربية والمعنى، (بيروت: دار ابن حزم، ٢٠٠٠م)، ط١.

٥١. معاني النحو، (عمَّان: دار الفكر، ٢٠٠٣م)، ط٢.

- **ابن السراج النحوي البغدادي، أبو بكر محمد بن سهل،**

٥٢. الأصول في النحو، تحقيق د. عبد الحسين الفتلي، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٨م)، ط٣.

- **أبو السعود، محمد بن محمد العمادي،**

٥٣. إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، (بيروت: دار إحياء التراث العربي).

- **سيبويه، أبو البشر عمرو بن عثمان بن قنبر،**

٥٤. كتاب سيبويه، تحقيق عبد السلام محمد هارون، (بيروت: دار الجيل)، ط١.

- **السيوطي، جَلال الدّين أبو الفضْل عبْد الرّحمن بْن أَبي بكْر (٩١١هـ)،**

٥٥. الإتقان في علوم القرآن، تحقيق سعيد المندوب، (لبنان: دار الفكر، ١٩٩٦م)، ط١.

٥٦. همْع الهَوامع في شَرح جمْع الجَوامع، تحقيق عبد الحميد هنداوي، (مصر: المكتبة التوفيقية).

- **الشافعي، أبو عبد الله محمد بن إدريس،**

٥٧. الأم، (بيروت: دار المعرفة، ١٣٩٣هـ)، ط٢.

٥٨. الرسالة، تحقيق أحمد محمد شاكر، (القاهرة، ١٩٣٩م).

- **الشوكاني، محمد بن علي بن محمد (١٢٥٠هـ)،**

٥٩. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، (بيروت: دار الفكر، ١٩٨٣م).

- **الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب،**

٦٠. المعجم الكبير، تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي، (الموصل: مكتبة الزهراء، ١٩٨٣م).

- **ابن عادل الدمشقي الحنبلي، أبو حفص عمر بن علي (بعد٨٨٠هـ)،**

٦١. اللباب في علوم الكتاب، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود، وآخرين، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٨م)، ط١.

- **ابن عاشور، محمد الطاهر،**

٦٢. التحرير والتنوير، (بيروت: مؤسسة التاريخ، ٢٠٠٠م)، ط١.

- **العباسي، عبد الرحيم بن أحمد،**

٦٣. معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، (بيروت: عالم الكتب، ١٩٤٧م).

- **العبدي، المثقب،**

٦٤. شرح ديوان المثقب العبدي - عائذ بن محصن بن عبد القيس، جمع وتحقيق وشرح د. حسن حمد، (بيروت: دار صادر، ١٩٩٦م) ط١.

- **العجاج،**

٦٥. ديوان العجاج، تحقيق د. سعدي ضنَّاوي، (بيروت: دار صادر، ١٩٩٧م)، ط١.

- **ابن عطية الأندلسي، أبو محمد عبد الحق بن غالب،**

٦٦. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، (لبنان: دار الكتب العلمية، ١٩٩٣م)، ط١.

- **ابن عقيل العقيلي المصري، بهاء الدين عبد الله،**

٦٧. شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، (دمشق: دار الفكر، ١٩٨٥م).

- **العُكْبَريّ، أبو البقاء عبد الله بن الحسين (٦١٦هـ)،**

٦٨. التبيان في إعراب القرآن، تحقيق علي محمد البجاوي، (إحياء الكتب العربية).

٦٩. اللُّباب في علل البناء والإعراب، تحقيق د.غازي مختار طليمات وآخر، (دمشق: دار الفكر، ١٩٩٥م)، ط١.

- **الفارابي، أبو النصر،**

٧٠. كتاب الحروف، تحقيق محسن مهدي، (دار المشرق، ١٩٩٠م)، ط٢.

- **ابن فارس، أبو الحسين أحمد (٣٩٥هـ)،**

٧١. معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام محمد هارون، (مصر: مكتبة الخانجي، ١٩٨١م)، ط٣.

- **الفراهيدي، الخليل بن أحمد (١٧٥هـ)،**

٧٢. كتاب العين، تحقيق د. مهدي المخزومي و د. إبراهيم السامرائي، (العراق: دار الرشيد، ١٩٨٠م).

- **الفيروزابادي، محمد بن يعقوب (٨١٧هـ)،**

٧٣. القاموس المحيط، (بيروت: مؤسسة الرسالة).

- **القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري (٦٧١)،**

٧٤. الجامع لأحكام القرآن، تحقيق أحمد عبد العليم البردوني، (القاهرة: دار الشعب، ١٣٧٢هـ)، ط٢.

- **القضاعي، أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر،**

٧٥. مسند الشهاب، تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٦م)، ط٢.

- **ابن القطاع، أبو القاسم علي بن جعفر السعدي،**

٧٦. الأفعال، (بيروت: عالم الكتب، ١٩٨٣م)، ط١.

- **القيسي، أبو محمد مكي بن أبي طالب،**

٧٧. مشكل إعراب القرآن، تحقيق د. حاتم صالح الضامن، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٥م)، ط٢.

- **ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي (٧٥١هـ)،**

٧٨. بدائع الفوائد، تحقيق هشام عبد العزيز عطا - عادل عبد الحميد العدوي - أشرف أحمد، (مكة المكرمة: مكتبة نزار مصطفى الباز، ١٩٩٦م)، ط١.

٧٩. التفسير القيم، جمع: محمد أويس الندوي، تحقيق محمد حامد الفقي، (بيروت: دار الكتب العلمية).

- **ابن كثير القرشي الدمشقي، أبو الفداء إسماعيل بن عمر (٧٧٤هـ)،**

٨٠. تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي بن محمد سلامة، (دار طيبة، ١٩٩٩م)، ط٢.

- **ابن كيكلدي العلائي، صلاح الدين خليل،**

٨١. الفصول المفيدة في الواو المزيدة، تحقيق حسن موسى الشاعر، (عمان: دار البشير، ١٩٩٠م)، ط١.

- **المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد،**

٨٢. المقتضب، تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة، (بيروت: عالم الكتب).

- **ابن محمد الهائم المصري، شهاب الدين أحمد،**

٨٣. التبيان في تفسير غريب القرآن، تحقيق فتحي أنور الدابلوي، (مصر: دار الصحابة للتراث بطنطا، ١٩٩٢م)، ط١.

- **المرادي، بدر الدين الحسن بن قاسم (٧٩٤هـ)،**

٨٤. الجنى الداني في حروف المعاني، تحقيق د. فخر الدين قباوة ومحمد نديم فاضل، (بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٤٠٣هـ)، ط٢.

- **مسلم بن الحجاج، أبو الحسين القشيري النيسابوري،**

٨٥. صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، (بيروت: دار إحياء التراث العربي).

- **المناوي، عبد الرؤوف،**

٨٦. فيض القدير شرح الجامع الصغير، (مصر: المكتبة التجارية الكبرى، ١٣٥٦هـ)، ط١.

- **المناوي، محمد عبد الرؤوف،**

٨٧. التوقيف على مهمات التعاريف، تحقيق د. محمد رضوان الداية، (دمشق: دار الفكر، ١٤١٠هـ)، ط١.

- **ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (٧١١هـ)،**

٨٨. لسان العرب، (بيروت: دار صادر، ١٩٩٢م).

- **النحاس، أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل،**

٨٩. معاني القرآن الكريم، تحقيق محمد علي الصابوني، (مكة المرمة: جامعة أم القرى، ١٤٠٩هـ)، ط١.

- **النسفي، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود (٧٠١هـ)،**

٩٠. تفسير النسفي المسمى بمدارك التنزيل وحقائق التأويل، (دمشق: دار الفكر).

- **النميري، الراعي،**

٩١. ديوان الراعي النميري، شرح د. واضح الصمد، (بيروت: دار الجيل، ١٩٩٥م)، ط١.

■ **أبو نواس، الحَسن بِن هَانئ (١٩٨هـ)،**

٩٢. دِيوان أبي نواس، (بيروت: دار صادر).

■ **النيساري،**

٩٣. الوافية نظم الشافية، تحقيق حسن أحمد العثمان، (مكة: المكتبة المكية، ١٤١٥هـ ١٩٩٥م)، ط١.

■ **ابن هشام الأنصاري، جمال الدين أبو محمد عبد الله بن يوسف (٧٦١هـ)،**

٩٤. أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، (بيروت: دار الجيل، ١٩٧٩م)، ط٥.

٩٥. شرح قطر الندى وبل الصدى، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد. (القاهرة: ١٣٨٣هـ)، ط١١.

٩٦. مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق د. مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، (بيروت: دار الفكر، ١٩٧٩م)، ط٥.

■ **الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد (٤٦٨هـ)،**

٩٧. الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق صفوان عدنان داوودي، (دمشق: دار القلم، ١٩٩٥م)، ط١.